الفصل الثاني

دور الوزراء
فى الحياة الاقتصادية

- الوزراء والسياسة الجبائية
- الزراعة

أسباب التدهور الزراعى فى عهد نفوذ الوزراء الحفصيين

- الحرف والصناعات
- التجارة

obeikandl.com

الوزراء والسياسة الجبائية

إن قوة الدولة السياسية لا تكون إلا بقوة اقتصادها، وعندما تتقهقر الدول وتقل الخيرات والموارد فتقل أموال الدولة، وتضعف مدا خيل الرعايا وتقل الجباية المفروضة عليهم مما يترتب عنه ضعف الطاقة الشرائية وفتور الحركة العمرانية[١] فنجد أن السلطان عندما تضيق به الظروف يضطر إلى فرض مزيد من الضرائب ويساعده فى ذلك وزرائه الذين يقومون بجمعها، وهنا نجد أنه فى نهاية حكم السلطان المستنصر لجأ إلى فرض الكثير من الضرائب والإدارات التى ألغاها وولى عهد السلطان الواثق حيث أمر بإلغاء وإحراق دفاترها وأزماتها[٢] وهنا نلاحظ أنه فى عهد قوة السلطان وسيطرته على مجريات أمور الدولة ولكن عندما يضعف السلطان ويسيطر عليه وزرائه تتدهور أمور الدولة وتقل الجباية فيلجأ الوزراء المسيطرون على مقاليد الحكم بفرض ضرائب جديدة ومكوس، ويقول ابن خلدون فى ذلك إذا احتاجت الدولة للمزيد من المال تفرض المكوس والضرائب[٣] وكان الوزير أبو عثمان سعيد بن يوسف بن الحسين قد كون ثروة كبيرة فى عهد السلطان المستنصر من وراء تلك الجبايات الضخمة المفروضة على الرعايا وكان هدف الوزراء الأساسى جمع الأموال[٤].

---

(١) عبد العزيز الدولاتلى: مدينة تونس، ص ٦٦ – ٦٧، رشا سالم، الوزارة، ص ٢٩٣.

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص١٣٦.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، جـ١، ص ٢٥٣.

(٤) ابن القنفذ الفارسية، ص١٣٥، الزكشي، المصدر السابق، ص ٤١، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص ٦٧٨.

وظهرت تلك الثروة الضخمة عندما صدرت أمواله فى عهد السلطان الواثق على أيدى ابن الغامقى حيث بلغت (ستمائة إلف دينار) غير الأثاث والمتاع الآخر، وكانت هذه الأموال مدفونة بداره وعثر عليها، غير ما استولى عليه مواليه بعد القبض عليه[١].

وكذلك فعل أيضًا الوزير ابن الغافقى المعروف بابن الجبابر حيث كان همه الرئيسى جمع الأموال بشتى الطرق وبالغ فى أمور الجباية بعد أن تحكم فى السلطان وسيطر على مقاليد الحكم[٢] فكان كثير الإعجاب والفخر بنفسه، فكان شديد الإسراف على فخامته وملابسه واقتناء الزخائر[٣] واستخدام أسلوب التعسف هو ورجاله من أجل جمع الجباية من الرعية[٤]

حيث عين أحد العلوج فى وزارة الأشغال المالية يسمى مدافع[٥] وكذلك كلف أخاه إدريس أبا على بأشغال بيجاية وأموالها فأساء هو الآخر السيطرة وأخذ الأموال عنوة وبشدة، وعمل على اقتناء الأموال، مما مهد ذلك إلى انفجار الأوضاع فى بجاية والدولة الحفصية[٦] وإتلاف أموال

(١) ابن القنفذ:الفارسية، ص ١٣٤، الزركشي: المصدر السابق، ص، ولم يذكر كمية الأموال بالضبط كما ذكرها ابن خلدون: ابن القنفذ.

(٢) الدولاتلى: مدينة تونس ص٩٢.

(٣) ابن القنفذ: الفارسية ص١٣٥، الزركشي: المصدر السابق، ص٤١، الدولاتلي: مدينة تونس ص٦٢، المطوى: السلطنة، ص٢٣٢.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية ص١٣٥، ابن الشماع: المصدر السابق، ص٧٥، المطوي: السلطنة ص٢٣٢.

(٥) ابن خلدون: العبر، ص٦، جـ ١٢، ص ٦٧٩، القنفذ، الفارسية، ص١٣٥.

(٦) المطوي: السلطنة ص٢٣٣.

الدولة[١] وهكذا كان للوزير رجاله وخاصته فى جمع الجباية والأموال من الدولة وذلك لغياب السلطان وتحكم الوزراء فيهم، وكان السلطان الواثق لا يحرك ساكنًا والأوضاع من حوله تشتعل حتى انتهت بتنازله عن العرش لعمه أبى إسحاق.

وعلى الرغم من استفادة عناصر أخرى من الجباية ولكنها كانت فى النهاية تصب لفائدة السلطة المركزية التى تتركز فى أيدى سلطان قوى أو وزراء مستبدين على السلطان متحكمين فى أمور الدولة[٢] وكان من المستفيدين من الجباية الأعيان المحليين بالبادية من كبار شيوخ البدو ورؤسائهم أصحاب الزوايا الذين يتولون كراء الأرض أو الحصول على نسبة معينه من المحصول وذلك مقابل حماية الأراضى من التعدى بفضل قوتهم وسلطتهم العسكرية وهم من فرسان البدو، أو سلطة معفية من إتباع الزوايا، ولعبت القبيلة الموالية للسلطة المركزية دورها أيضاً فى جمع الضرائب[٣] واستفاد المالكون العقاريون بالمدينة الذين يكثرون الأرض لصغار المزارعين مقابل مبلغ مالى عينى أو نقدي[٤] فإن محصلة جمع الضرائب تذهب إلى المخزن السلطانى الحفصى بقيادة وزير المالية أو كبير الوزراء المستبد ومع جيشه القوى القائم بأمر الجباية على هيئة حملات موسميه يستخدمون فيها الرعب وبث الخوف فى قلوب المزارعين

(١) ابن القنفذ: الفارسية ص ١٣٥ المطوي: السلطنة ٢٣٣.

(٢) الونشريسي: المعيار،ج١،ص، ج٦، ص١٥١، البرزلي، جامع مسائل الأحكام، ج.

(٣) الونشريسي:المعيار، ج٦،ص١٥١، البرزلي: جامع مسائل الأحكام،ج١،ص.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية،ج١،ص٥٣٠.

والفلاحين[١].

كان ذلك على العكس من السلطان القوى صاحب السياسة الحكيمة أبى زكريا الحفصى حيث اتبع نظام جبائى عادل حيث ضرب على أيدى وزرائه ومنعهم من الإساءة إلى الرعية بما أنعش الاقتصاد الحفصى وأعان ذلك على الازدهار وارتفاع مستوى المعيشة بين الأهالى[٢] حيث حذر أحد وزرائه من الإسراف وهدده بالقتل وحثه على جباية الأموال فى الاعتدال من الرعية[٣] وترك سبعة عشر بيتًا من المال[٤].

وكان وزير الأشغال من أهم مناصب الدولة الحفصية ونظمها الإدارى، وكان ينفرد به وزير من الموحدين فكلف بولاية العمال وعزلهم ومحاسبتهم على الجباية التى كان لا يدفعها الشعب إلا بالقهر العسكرى، حيث يتولى الجندى جمع الجباية من الجهات بالمملكة الحفصية[٥] ونلاحظ هنا انه فى حالة قوة السلطان وسيطرته على وزرائه تمشى الأمور على أفضل وجه على العكس من الوزراء المستبدين على السلاطين الضعفاء فتتأزم الأمور، و تحدث مشكلات وبعثوا جامعى الضرائب فسادًا وعنفًا مع الرعية.

وكان هناك الأرياف المغربية عامة والإفريقية خاصة عانت من النهب من

---

(١) الونشريسي: المعيار،ج١،ص١٤٢، ج٦،ص١٥٠،١٤٩،١٣٩، محمد حسن، المدينة والبادية، ج١، ص٥٣٠.

(٢) العامرى: المرجع السابق، ص١٨

(٣) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٦، العامرى: المصدر السابق، ص١٨

(٤) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٧

(٥) العامرى: المرجع السابق، ص٢٠

السلطة وشيوخ البدو[١] وكانت تسمى مغارم البادية وجبايتها بوزارة العمود وهى خاصة بالجباية من الأرياف والبدو واستمرت هذه الضريبة فى عهد السلاطين الضعاف والوزراء الأقوياء[٢] حيث فى عهدهم تعود الزارعون والحراثون على دفع شتى هذه الضرائب من جبايا والمغارم والحطايا التى فرضها عليهم الوزراء المستبدين ورجالهم من شيوخ القبائل[٣] بالإضافة إلى زكاة الماشية ثم فرضت إتاوة أخرى سميت فى تونس خراج الجبال أطلقت على الأراضى الرعوية، وضريبة تؤخذ على الإنتاج الزراعى من حبوب وزيتون وتمور تعرف باسم القطيع، وقد وجدت منذ القرن الخامس الهجرى والحادى عشر الميلادى حتى سنة ٧٤٩ هـ حيث أزالها السلطان المرينى أبو الحسن وشدد فى عقوبة القائمين عليها، وأسقط أموالا جمة[٤].

وكان للوزير الفازازى دوره فى عهد السلطان أبى حفص حيث قام بجباية الخراج من جميع الجهات التابعة للدولة الحفصية[٥] كما فرض المغارم على أهل توزر بسبب ثوراتهم ضد السلطة المركزية المتمثلة فى الوزير الفازازى وعامله على توزر محمد ابن يحيى من أبى بكر التينملل فكبح جماحهم وكثر شوكتهم وشوكة زعيمهم أحمد بن يملول[٦] وكذلك تحرك الوزير الأكبر بن اللحيانى فى

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٥٣٤

(٢) العامرى: المرجع السابق، ص٢٠

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٥٣٤

(٤) ابن مرزوق: السند، ص٢٨٦

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص٧٠٧

(٦) المصدر السابق نفسه والجزء والمجلد، ص٧٠٢، ٧٠٧، راجع أحداث هذه الثورة فى الفصل الأول (ودور الوزير الفازازى فى القضاء على الثورات).

شهر جمادى سنة ٧٠٦ هـ بجيشه إلى جربه من أجل تخليصها من ايدى النصارى فقاتلهم شهرين[١].

وحاصر حصن القشتيل(♣) ولكن دون جدوى نظرًا لمناعة القلعة وشدة استحكاماتها وبسبب نفاذ الزاد والمؤن التى كانت مع جيشه وانقطاع الإمدادات لهم، فقرر كبير الوزراء ورفع الحصار[٢] ثم رحل عنها إلى قابس ثم بلاد الجريد وانتهى إلى توزر ونزلها وأعانه على ذلك أحمد بن محمد ابن بملول(*)، فقام بجمع جباية بلاد الجريد وعاد على قابس ثم أمر عساكره بالعودة إلى تونس[٣] ثم رحل عن قابس إلى بعض جبالها بسبب سوء هوائها بعد أن شفى من بعض الآلام التى ألمت به رحل إلى طرابلس[٤] ثم انطلق للحج مع الوفد المصرى المملوكى العائد من بلاد المغرب الأقصى وذلك أواخر سنة ٨٠٧ هـ[٥] وعندما يبلغ الاستبداد مداه نجد أن الوزير يمكن أن

---

(١) التجاني: الرحلة، ص١٢٨

(♣) حصن القشنيل: حصن مربع الشكل وفى كل ركن منه برج اثنان منهما مستديران واثنان مثمنان وبين كل برجين من هذه فى وسط لحائط برج صغير مربع ويدور به فصل قصير ويدور بجميع ذلك حفر واسعة راجع التجاني: الرحلة، ص١٢٨

(٢) التجاني: الرحلة، ص ١٢٨، برنشفيك: المرجع السابق: ج١، ص١٥٥

* احمد بن محمد بن بملول:-

(٣) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٧٣٠، الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٦

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص٧٣١، الزركشي، المصدر السابق، ص٥٧، التجاني: الرحلة، ص٤.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص، الزركشى، المصدر السابق، ٥٧، التجاني: الرحلة، ص٥ برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٥٦ –١٥٧ ويحضرنا هنا سؤال ماذا فعل الوزير الأكبر أبو

يتولى أكثر من منصب فى حالة سيطرته على شتى أمور حدوده وهو الوزير المستبد القوى وصاحب النفوذ ابن أبى الحسين حيث جمع بين وظيفتى كاتب العلامة وصاحب الأشغال[١] حيث تغلغل نفوذه فى شتى أمور الدولة إلى أن توفى فى سنة ٦٧٤ هـ/١٢٧٥ – ١٢٧٦ م وتولى وزارة الأشغال الفقيه أحمد بن يحيى الأنصارى ثم المسمى سعيد وهو من أقارب ابن أبى الحسين[٢] واشتدت سطوة عمال الجباية فىء عهد السلاطين الحفصيين الضعاف وانتشر سطوهم وتعديهم على أملاك الرعية حيث كان أكثرهم معروفين بالجور والظلم وأخذ أموال الناس بالقوة وبغير حق[٣]. وفى عهد السلطان الضعيف والوزير المستبد به، يهمش القاضى لأنه كان محاطًا بأعوان عديدين يضللون الحقيقة ويحصلون على الرشاوى ويمنعون الرعية من الدخول إليه حيث يستطيع عمال الجباه من ممارسة سطوتهم وظلمهم للناس[٤].

اللحيانى بالجباية بعد ما جمعها، هل أرسلها إلى السلطان أبو عصيدة أم لا، وهنا يمكننا القول بأنه قد خرج إلى الحج، وهذه الرحلة تتكلف الكثير من الأموال الباهظة بسبب طول السفر وما يصحبه من مصروفات على طول الطريق وعلى البلاد التى ينزل بها، مما يجعله أن يجمع هذه الجباية بالإضافة إلى أمواله وخرج بها قاصدًا الحج بعد أن استأذن السلطان الضعيف الذى لا يستطيع أن يمنعه من ذلك وبالإضافة إلى ذلك أن كبير الوزراء لم يستمر فى حصاره بحصن القشتيل بسبب نفاذ مؤنه وأقواته بالإضافة إلى انقطاع المدد من السلطان فهذا يعنى أن كبير الوزراء جمع الجباية لنفسه وكذلك أرسل الجيش إلى العاصمة ولم يرسل معه أى جباية.

(١) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٢٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٠

(٢) برنشفيك، المرجع السابق، ج١، ص١٠٠، ١٠٣

(٣) البرزلي: جامع مسائل الأحكام، ج٤، ص٦٠

(٤) محمد حسن، المدينة والبادية، ج١، ص٥٣٤، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦

obeikandi.com

ويشتد السلطان فى محاسبة رجاله والضرب على أيدى جامعى الضرائب وذلك فى بداية عهده، حيث يقوم بإلغاء الغرامات وإبطال بعض الضرائب من أجل استمالة عطف القبائل(١) وذلك فى عهد السلطان الواثق ولكنه لم يطل فى ذلك حيث استبد عليه ابن الجبر وأطلق عنانه فى جميع شئون البلاد لدرجة أنه عين أخاه إدريس على ولاية الأشغال ببجاية، فقام بجمع الأموال بالقوة والظلم على الرعية، واقتنى الكثير من الأموال(٢) بل سعى إلى أكثر من ذلك حيث أصبح هو المتصرف الوحيد فى الشئون الإدارية للدولة الحفصية وكلف أحد العلوج المعتنقين للإسلام بالإدارة المالية وجمع الضرائب وسماه مدافع، وذلك لعدم وجود أى خطر من جانبه لأن العلوج لم يكن لهم أى مطامح أو نفوذ فى الدولة آنذاك(٣) حيث جمع الأموال بالشدة والتعسف من أجل إرضاء الوزير المستبد الذى استغل مكانته الممتازة لاكتساب الأموال الطائلة عن طريق رجاله حيث كان يميل إلى البذخ والملذات(٤). وفسدت الحياة السياسية الاقتصادية على يديه(٥) وأحياناً كانت تتحرك قواته وحملاته على البوادى والقرى والمدن من أجل استخلاص الجباية وذلك بدافع من الوزراء الحفصيين وكانت هذه الحملات تؤدى إلى حلول الدمار والخراب على المنطقة

(١) ابن خلدون، العبر، مج٦، ج١٢، ص ٦٧٦ – ٦٧٧، ابن دينار: المصدر السابق، ص١٦٠، ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص٢٠٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٣،

(٢) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٧٨ – ٦٧٩، الزركشى، المصدر السابق، ص١٤٢

(٣) – ابن خلدون: العبر، مج٦، ج١٢، ص٦٧٧ – ٦٧٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٤

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٢، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٥.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٢.

ونرى أن أحد الحملات التأديبية على قفصه قد أتلفت كثيرًا من الإنتاج قد يفوق النصف وهذا يؤدى خراب ذلك المحصول[١] وكانت هذه الجيوش والحملات التأديبية تحتاج إلى أموال باهظة من أجل جمع الضرائب وبالتالى يزداد الوزراء الحفصيون فى فرض الضرائب[٢] بالإضافة إلى ذلك تزداد تعديات الحملات المتوالية لجمع الجباية، عندما يقومون بحملاتهم التأديبية على البلاد الرافضة لدفع الجباية مثل البلاد الغربية والواحات النائية فيكثر الغضب والنهب ويعمد عامة الجند إلى سلب أموال الناس بالقوة واتخذوا من الزوايا محطات للاستراحة من أجل مواصلة التقدم والزحف نحو الضرائب والقبائل المانعة له[٣].

ونجد أيضًا أن النظام الجبائى المنظم فى أوقات قوة الدولة يصاب بالتخبط والاضطرابات والبلبلة في أثناء فترات ضعف السلطان الحفصى وسيطرة الوزراء الحفصيين على نفوذ الدولة حيث انتشر الظلم والتعسف والغضب نتيجة لتعدد القوى الاجتماعية مطالبة بالجباية، حيث جباة الضرائب المعاونين لأمراء القرى الظالمين الذين استعملوا شتى أساليب التعذيب والسجن والتهديد والترغيب من أجل شئ واحد فقط هو الحصول على الجباية[٤].

---

(١) الشماخي: السير، ج، ص، محمد حسن المدينة والبادية، ج٢، ص٥٣١.

(٢) رشا سالم: المصدر السابق، ص٢٩٤.

(٣) البرزلي: جامع المسائل، ج٣، ص١٢٤، ج٤، ص٦٠، ص١٣٩، ابن ناجي، معالم الإيمان، ج٤، ص٢١٠.

(٤) البرزلى: جامع المسائل، ج٤، ص٢٧١، لدرجة أن بعض المهاجرين من الأندلس إلى أفريقيه فى فترات نفوذ الوزراء الحفصين تمنوا الرجوع إلى دار النصارى بسبب ما يجدونه من ظلم

وتنوعت الضرائب على المجتمع الإفريقى فكان هناك ضريبة القائد يدفعها أهل البادية عند دخولهم المدن حسب الكيفية[١] وكذلك فرضت القبالة[*] أو اللزمة[**] وشملت جميع الحرف والتجارات فكانً المتقبل يتولى

وجور على الرغم من تحريم الفقهاء البقاء فى أرض الكفر والفسوق راجع الونشريسي: المتاجر فى بيان أحكام من غلب على وطن النصارى ولم يهاجر وما يترتب عليه من العقوبات والزواجر، ت/ حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة ١٩٩٦م / ١٤١٦هـ / ص٤٦ – ٤٧.

(١) محمد حسن، المدينة والبادية، ج١، ص٥٤ وكانت هذه الضريبة تدفع كالآتى الحبوب: درهمان / بالقفيز، الزيت: ٣بيزا /للجرة – الغلال: ٥,٥ –٥ دراهم / للقنطار – السمك نصف دينار / للقارب – الصوف: ٢,٢٥ بيز للقنطار – الجلد المدبوغ: ٤ بيزا / للقنطار – الجلد الغير مدبوغ ٤ بيزا للقنطار – الحرير: ١,٢٥ بيزا / للقنطار أنواع أخرى من الحرير ١٥٪ للقنطار – القطن ٢ بيزا / للقنطار

(*) والبيزا (Besante) يعادلها الدينار التونسى الذى يحتوى على ٨ دراهم جديدة أو ١٠ دراهم قديمة: راجع محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٥٤٠

(*) القبالات: بفتح القاف والباء عمروه والجمع قبالات، القبالة هى فى الأصل الضريبة التى تدفع إلى بيت المال وأطلق هذا اللفظ على الضرائب الزائدة التى يقضى بها الشرع، واستخدمت هذه الدلالة على الضرائب التى يؤديها بائعو السلع الرئيسية وأهل الحرب فى المغرب والأندلس راجع ابن عذاري: البيان، المغرب، ج١، ص١١٦،ابن حوقل: صورة الأرض، ص، الإدريسى نزهة المشتاق، ص ٧٠، الإدريسى: نزهة المشتاق، ص٧٠، محمد عماره: المصطلحات الإسلامية، ص٤٤٥، ابن القطان: نظم الجمان، ص١٩٣، القادرى بوتشيش: أثر الحروب فى المجال الضرائبى، مجلة المناهل، ع ٣٤، ع ٣٥، السنة التاسعة، ١٩٩٧م، ص٨٧، الجنحانى: دراسات فى التاريخ الاقتصادى والاجتماعى، ص٩٩، عز الدين أحمد موسى: النشاط الاقتصادى، ص١٦٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص١٩٨ – ٢٠٠.

(**) اللزمة: ظهر هذا المصطلح لأول مرة فى عهد الحفصى وهى العشر الذى يدفعه التجار فى

التزام المال المفروض على الأسواق، فيسلم المبلغ المطلوب للسلطة المركزية التى قد تكون فى ايدى أحد الوزراء الأقوياء المسيطرين على الدولة بشرط أن يأخذ من التجار أو الحرفيين مبالغ زهيدة من أجل تغطية ما سلمه ودفعه للدولة(١).

ونلاحظ أن الأمور اشتدت ظلمه من نظام القبالة وخاصة فى عهد السلاطين الضعاف واستبداد الوزراء لدرجة أن أحد النصارى قد تقبل فندق باب البحر بتونس بمبلغ قدره ١٢ ألف دينارًا(٢) حتى جاء السلطان أبو فارس القوى المسيطر على وزرائه الذين ساعدوه فى تنفيذ سياسته وأحكم القبضة على البلاد وإقامة العدل(٣) وإلغاء بعض الجبايات غير شرعية(٤) وحيث أمر وزير جبايته الفقيه أبا عبد الله محمد ابن قاسم ابن قليل(٥) بهدم هذا الفندق بسبب بيعه للخمور وانتشار الفساد والفسق به، وأمر وزراءه ببناء زاوية ومدرسة لطلبة العلم(٦) وترك كثيراً من الجباية للفقراء(٧) ولكن يتغير نظام الجباية بوفاة سلطان

الديوان، واللازمة جمع لوازم التى كانت تدفعها القوافل القادمة أو الخارجة من بلاد السودان وأجدابية فى العهد الحفصى، راجع أبن حوقل: صورة الأرض، ص٧١، Amari: diplomi, op.cit.

(١) البرزلي: جامع المسائل،، ج٢، ص ١٠٥، ج٣، ص١٦٩.

(٢) عبد الله الترجمان: المصدر السابق، ص١٨، أبن أبى دينار: المصدر السابق، ص١٧٥، ابن مرزوق: المسند، ص٢٨٣.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٥.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٢٤٦، ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص٢٣١.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٥ – ١١٦

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ١١٦، ١٢٠، ابن الشماع: المصدر السابق،، ص١١٤ – ١١٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٥٤٦ - ٥٦٠

(٧) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٦ – ١١٧

حفصى وتولى غيره، حيث نجد أنه فى النصف الأول من القرن التاسع الهجرى حاول عمال السلطان والوزراء المستبدين الاستئثار بقبالة فندق الرماد بتونس وبلغ استبداد الوزراء لدرجة فرض الأسعار المرتفعة على المتنفعين[١] مما جعل السلطان يتنكر الوزراء عمال الجباية الذين تعاظمت ثروتهم من جمع الجباية والتعثف الشديد من جمعها، فيقوم بمحاسبتهم واستصفاء أموالهم ومصادرة ثرواتهم والتنكيل بهم والحد من نفوذهم وكسر شوكتهم، والقضاء على مساعديهم وأنصارهم، وأكبر على ذلك ما حدث لمحمد بن خلدون وزير الأشغال حيث قتله العامة في أثناء حركة ابن أبى عمارة سنة ٦٧٩هـ[٢] وكذلك أبو العباس أحمد الليانى حيث قتل وصودرت أمواله[٣].

ونتيجة لشدة فسق وفساد وتعسف الجباه وتغاليهم فى فرض المغارم وقف الفقهاء موقفًا واضحًا اتجاههم ووصفهم لمستغرقى الذمة والفسق والظلم[٤] وكذلك مشايخ قبائل الأعراب والقبائل نفسهم تشددوا فى فرض الإتاوات على العامة وأذاقوهم الويل فى جمعها سواء كانت وأنفسهم أو مساعدة منهم للسلطة الجائرة، ووصفهم الفقهاء أيضًا مستغرقى الذمة وإن أموالهم حرام، وحذر الناس على عدم التعامل معهم بأى أنواع، وأصبحت نعه الشكل

(١) البرزلي: فتاوى، ج٤، ص٢١٨، محمد حسن: المدينة والبادية، ص ٥٤٦، للمزيد راجع محمد حسن: المرجع السابق، ج١، ص٥٤٥

(٢) الزركشي: المصدر السابق، ص٤٧

(٣) المصدر السابق، ص٣٦

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٢٩٤ – ٢٩٥، البرزلي: جامع، ج٤، ص٢٨٦، ٢٧٠، إبراهيم القادرى بوشيش: أثر الحروب فى المجال الضرائبى، ص ٨٨، رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٩٥

والارتياب تطلق على التعامل التجارى معهم[١] وأصبح كل عمال السلطة يطلق عليهم عمال غصب[٢] وشدد الفقهاء على ضرورة رد أموال ولاة الجباة المتعسفين الظالمين إلى بيت المال لأنهم اخذوا أموال حرام وليست ملكًا لهم[٣] ولا تقبل شهادتهم فى أى قضية من القضايا ولا يعتد لهذه الشهادة من الفقهاء والقضاة[٤].

وعلى الرغم من التشدد والتعسف لدى جباة الضرائب نجد أيضًا هناك من وزراء الأشغال من كان يراعى الله فى عامة الناس وذلك فى عهد السلاطين الحفصيين الأقوياء لان السلطان نفسه كان يختار لهذا المنصب الهام من يثق فيهم مثلما فعل السلطان أبو زكريا الحفصى[٥] والسلطان أبو عمرو عثمان عندما أختار فضيلة الفقيه أبا عبد الله محمد بن القاسم أبن قليل الموثوق به العادل المستقيم، فاستقامت الجباية أيامه أحسن استقامة وألغيت كثير من الجبايات وجعلها لوجه الله سبحانه وتعالى[٦].

وخلاصة القول نجد أن الوزراء المستبدين بالسلاطين الضعاف؛ كان

---

(١) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص١١٠.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٩، ص٩٤، البرزلى: جامع، ج٤، ص٢٧١.

(٣) المصدر السابق نفسه، ص ١٣٨ - ١٣٩، البرزلي: جامع، ج٤، ص ٢٦٨، ج٦، يوضح الونشريسى أن جمع تبرعات الجباة سواء حبس أو صدقة لا تقبل وهى غير نافذة ومردودة عليها.

(٤) الونشريسي: المصدر السابق، ج٦، ص١٣٩.

(٥) ابن الشماع: المصدر السابق، ص٥٧، البرزلي: جامع، ج٤، ص ٢٦٩ – ٢٧٠.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص١١٦ – ١١٧، أبن الشماع: المصدر السابق، ص١١٤ – ١١٥.

هدفهم الأول جمع الأموال عن طريق الجبايات سواء شرعية أو غير شرعية، لأنه متيقن أن أيامه فى السلطة والسيطرة معدودة، فعندما يتولى سلطان ضعيف الحكم وليسيطر عليه أحد الوزراء ويسلم له نفسه ويقوم برفع بعض الجبايات وإطلاق سراح المسجونين من أجل كسب عطف وتأييد الناس ولكن سرعان ما يعود مرة آخرى إلى الوضع الذى سبقه من فرض الضرائب وجبايات وعسف وظلم فى ظل سلطان لا يحرك ساكنًا وعلى الرغم من تشديد الفقهاء على عدم أحقيتهم بهذه الأموال بالإضافة إلى قيام الثورات ضد السلطة المركزية بسبب هذه الضرائب وتعسف الجبال وضعف السلطة وفقدها شريعتها وهيبتها[١] بالإضافة إلى عجز الناس عن الدفع لسوء الأحوال الاقتصادية فى فترات التدهور والانهيار بسبب انشغال الوزراء بحروبهم الداخلية والقضاء على الفتن والثورات التى أدت إلى نهاية الدولة على العكس من فترات الازدهار الاقتصادى بسبب الاستقرار السياسى وقوة السلاطين واهتمامهم بالنواحى الاقتصادية ودور وزرائهم فى تنفيذ سياستهم والرفق بالناس ومحاسبتهم وتصفية أموالهم.

وكانت نسبة الرسوم المفروضة على جمارك التجار اليهود القادمين من أوروبا صغيرة نسبة إلى أهل الأديان الأخرى بالبلاد الغربية، فكانت تقدر بنسبة تصل إلى ٥ ٪[٢] أما بضاعة التجار المسيحيين كانت الرسوم الجمركية

(١) أبو حمو موسى الزياني: واسطة السلوك فى سياسة الملوك، مخطوط بمعهد المخطوطات، جامعة الدول العربية، القاهرة، مكتبة الزيدانية (١٤٥٩) سياسة، ميكروفيلم ٢٢٤، ورقة ٥

(٢) Di Michele amari: diplomi arabi r-archivio floretion testa originale in frenze dalla tipografia di felice le monnier mdcdxiii p. ٨١

كانت تتراوح بين ٨ ٪، ١٠ ٪، ١١ ٪، ١٢ ٪ حسب الاتفاقيات المبرمة بين الدول الغربية والدول المسيحية(١).

الوزراء والزراعة فى العهد الحفصيى

تعتبر الزراعة منذ عهود قديمة من أبرز الأنشطة الاقتصادية المزاولة بأفريقيا وذلك بما تمتعت به من مقومات مناخية وجودة تربة كان لها الأثر الأكبر فى التوجيه إلى العناية بالأرض من قبل السلطة الحاكمة المتمثلة فى السلطان ووزرائه ومزاولة الزراعة من قبل المزارعين والقائمين عليها(٢) حيث تمتعت بشتى الأنواع النباتية المختلفة، بالنظر إلى مختلف مناطقها المناخية، حيث كانت الأنواع مختلفة بطبيعة الحال، حيث الارتفاع الشاق وطبيعة الأرض، والعوامل البشرية التى كانت مرتبطة أكثر بكميات الأمطار التى كانت تنقص أكثر فأكثر، بقدر ما تتقدم نحو إلى المناطق الداخلية أو الجنوبية وكذلك المياه الجوفية وكانت الحبوب تمثل دومًا وأبدًا أهم المنتجات الزراعية فى أفريقيا(٣) وتختلف درجات الحرارة وذلك لاختلاف الموقع من حيث

(١) عمر محمد البارونى: العلاقات التجارية بين بلدان المغرب وإيطاليا فى العصر الوسيط مجلة البحوث التاريخية، ليبيا، عدد ٢، ١٩٨٦، ص ٣٢٦، عاشور بوشامة: علاقات الدولة الحفصية مع دول المغرب والأندلس، ص ٣٣٩ -٣٤٠، محمد إسماعيل، ثورات العرب والبربر واليهود فى المغرب الاقصى والأندلس فى عهد بنى مرين، مكتبة الثقافة الدينية، ط ١، ١٤٢٩ هـ / ٢٠٠٨م، ص١٦٣، رشا سالم، المرجع السابق، ص٢٩٩

(٢) Doumerc (b): venise et la dynastie hafside a la fin du xvs. in cahiers de la tunisie n: ١١٧- ١١٨ p. ٥٧٣

لمياء محمد سالبم شرف الدين: بعض ملامح الأزمة افريقية الاقتصادية ص١٢٥

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ٢٢٥

العرض ومقدار الارتفاع فوق سطح البحر أدى إلى اختلاف النباتات[١] وتنوع مصادر المياه بالإضافة إلى جودة التربة وتنوعها ساهم بشكل ملحوظ فى تنوع الحياة الزراعية[٢]

واهتم السكان بالأراضى الزراعية واعتنوا بها وتخصيبها من أجل إنتاج أفضل المحاصيل[٣] فاستخدموا الكثير من المخصبات التى تساعدهم فى زيادة الإنتاج[٤] التى أثرت عليه التطورات السياسية، حيث نجد أنه فى عصر السلاطين الأقوياء نجد اهتمامهم بالزراعة وتكليف وزرائهم بالأشراف على عملية الزراعة[٥] فقاموا بإعطاء كبار رجال الدولة من الوزراء ملكيات خاصة بهم، وكان الوزراء الأقوياء يسيطرون على ملكياتهم فى عهد السلاطين الضعفاء على العكس فى عهد السلاطين الأقوياء الذين قاموا بمصادرة أملاك

(١) عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص

(٢)الزركشي: المصدر السابق، ص ١٣٤ حسن على حسن: الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس عصر المرابطين والموحدين، مكتبة الخانجى، ط ١، القاهرة، ١٩٨١م، ص ٢٣٢ – ٢٣٣،

(٣) الونشريسى: المعيار، ج ٧، ص ٣٤٣

(٤) المصدر السابق نفسه، ج ٨، ص٢٦٩، الزركشى، المصدر السابق، ص ٢٥– ٢٦

(٥) Pon cet (j): Pros perite et decadence l friquennes in charies de la tunisie I , ١١ , ١٩٦١ p. ٢٢١ , ٢٤٣

على العكس من عصر السلاطين الضعاف حيث يتحكم الوزراء فى شئون البلاد وتكثر الفتن والثورات وينعدم الأمن الذى لا يتوفر إلا فى عهد السلاطين الأقوياء، نجد أن هناك فسادًا كبير فى الحياة الاقتصادية وتفقد كثير من المراكز الاقتصادية مكانتها راجع: عبد الواحد المركشى، المعجب، ص ٢٠٠ – ٢٠١

وزرائهم كنوع من أنواع العقاب وذلك لأسباب مختلفة[١] كما أعطيت الإقطاعيات إلى الوزراء الحفصيين مقابل خدمات يؤديها إلى سلطانه الحفصى[٢] حيث اختلفت الملكيات والمسميات حيث نجد التفرقة واضحة بين أملاك الدولة التى تسمى بأرض الظهير أو العنوة[٣] وأملاك السلطان التى أطلق عليها عدة مسميات مثل " خالصة السلطان " أو " الأملاك السلطانية " أو " مختص الملك "[٤] أو " مختص الحضرة "[٥] أو " دار المختص "[٦]

ونجد أن أرض الظهير كانت مواقعها دائمًا بالقرب من المدن الكبرى حيث سيطر عليها السلطان القوى ومعه وزرائه أو سيطر عليها الوزراء الأقوياء[٧] كما أعطى السلاطين الحفصيون وزراءهم لإقطاعات[٨] فى المجال المحيط بالمدينة

(١) الزركشى، المصدر السابق، ص ٢٥ – ٢٦، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٣، ابن الآبار، الحلة السيراء، ج١، ص ٤٥ – ٤٦، الذخيرة، ج١، ص ٤٥، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٥، العامرى: المرجع السابق، ص ١٧٦

(٢) العامرى: المرجع السابق، ص ١٧٦

(٣) أرض الظهير: هى الأرض التى أغتصبها وتم فتحها عنوة والاستيلاء عليها بالقوة وضمها مباشرة إلى أملاك الدولة وبيت المال أو فرض عليها ضريبة ثقيلة باعتبارها أرضًا ذراجية عنويه ومثل أصنافها الهناشير والضيعات الواسعة، راجع محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٣٠٨ – ٣٠٩

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص٨٩٦

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٧، ١٣٤، ١٥٤

(٦) الترجمان: تحفة الأديب، ص ١٦

(٧) البرزلى المصدر السابق، ج١١، ص٣١٢

(٨) الاقطاعات: جمع أقطاع ومصدر أقطع، يقال أقطعة أرض كذا، يقطعه أقطاعًا واستقطعه، وأنقسم لإقطاع فى بلاد المغرب الإسلامى إلى إقطاع الرواتب وكان يعطى الجند فيه

وذلك بسبب خصوبتها وإنتاجها الوفير وقربها من السلطة الحاكمة[١] وعلى الرغم من سيادة نظام الإقطاع فى الدولة الحفصية ولكن ذلك لم يمنع من ظهور الملكيات الخاصة للسلاطين ووزرائهم وكبار رجال الدولة من مشايخ القبائل والتجار وهذه الملكية الخاصة لم تؤد إى حدوث إلى تفاوت بين الدولة والعصبيات[٢] فنجد الوزير الأكبر ابن اللحيانى يعطى أحد مشايخ القبائل أرض الظهير الخاصة بالدولة الواقعة بين صفاقس وقابس وذلك من أجل زراعتها والاهتمام بها[٣] مقابل ضريبة يدفعها للدولة وأقطع الجند وقادة الجيوش

رواتبهم، وكذلك رواتب النبلاء والوزراء وإقطاع التسكين: ويقطع لمن يخشون فتنته وإقطاع الهبة وتمنح مقابل خدمة قدمت للدولة لحفظ الأمن راجع: أبن خلدون: التعريف بابن خلدون: ورحلته شرقًا وغربًا، عارضه بأصوله وعلق على حواشيه محمد ابن تاويت الطنجي، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٣ مارمول كربخال: أفريقيا، ج ٢، ص٣٠٠، الوزان: وصف أفريقيا، ج١، ص ٤٧، أبى الحسن العلمى: كتاب النوازل، تحقيق المجلس الأعلى العلمى بفاس، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، المغرب، (د.ت) ج ٣، ص ١٠٥ – ١٠٦ – ١٠٧، ابن صاحب الصلاة: المن بالإمامة على المستضعفين، نشر عبد الهادى التازي، بيروت، ١٩٦٤.، ص ٤٣٨، الونشريسى: المعيار، ج ٨، ص ٢٦٧– ٢٦٩، محمود إسماعيل، سوسيولوجيا الفكر الإسلامي، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٠، ص ٣٤٤.

(١) الونشريسى: المعيار، ج٨، ص ٢٦٧، الحبيب الجنحانى: تاريخ المغرب والحياة الاقتصادية والاجتماعية، ص١١٥.

(٢) المالكي: أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله، (ت نهاية القرن الرابع الهجرى / العاشر الميلادى)، رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وإفريقية، تحقيق / حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١م، ج٢، ص٣٢٢، الونشريسى: المعيار، ج٦، ص ٣٠٩، ج ٧، ص ٢٩٤، ج ٨، ص ١٠٦ – ١٧٤.

(٣) التجانى: الرحلة، ص ٢٣ – ٢٤، تعتبر هذه الأراضى ملكًا لبيت المال يؤدى المستغل لها وهى

إقطاعات كرواتب لهم كانت على شكل ربع عقارى أو هبة مالية تعطى فى المناسبات وكانت تسمى البركة والمواساة والإحسان، وكانت تفرق على القواد وجنودهم أربع مرات فى السنة فى عيد الفطر وشهر رجب وربيع أول وعيد الأضحى وكانت تعادل أربعين دينارًا مسماة أو ثلاثمائة درهم عتيقة، ولكن كان كبير الوزراء والوزراء وأكابر الحفصيين تمنح لهم إقطاعات كبيرة من الأرض من أجل الزراعة ولهم عشر ما يخرج منها[١].

واختلفت إقطاعات الجند حسب مكانتهم الاجتماعية وقربهم أو بعدهم عن السلطان فكان من كبار المشايخ من الوزير الأكبر والوزراء الآخرين هم على رأس الجند وكانت مساحتهم مقدار حرث عشرة أزواج بقرًا[٢] حيث كان وزراء الدولة الحفصية وزراء سيف وقادة للجيوش الحفصية لذلك كان لهم نصيب الأسد من الإقطاعات الزراعية الصالحة للزراعة، ولا بد فإن الوزراء كانوا يهتمون بهذه الإقطاعات ولكن الأمر الأكثر احتمالا أنهم أوكلوا أمر العناية بها لغيرهم بسبب انشغالهم بالحروب وأمور السلطة وقيادة الجيوش، وكان المزارعون القائمون بأعمال الزراعة لدى الوزراء والجنود يتقاضون مبالغ نقدية يدفع لهم فى الصيف أو عن طريق شريك ثان[٣] وكان الوزراء

لا تباع ولا تورث ولا تحاز إلا أن يقطعها السلطان لا حد من شيوخ القبائل أو الجند أو العلماء أو الصلحاء أو الأعراب فتبقى بيده ما لم يزلها منه أو يمت الخليفة والذى منحها، فتحتاج عندها إلى تجديد الظهير ويجوز أن يسلبها ليقوم ويعطيها السلطان أو الوزير القوى لآخرين بحسب اجتهاده راجع: البرزلى؛ المصدر السابق، ج٢، ص.

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٦، ص ٤٣٨.

(٢) العمرى: المسالك، ص ٢٣٨.

(٣) البرزلى: نوازل، ج٢، ص ١١٢، لمياء محمد سالم: المرجع السابق، ص ١٢٩، ص

وكبار رجال الدولة يحصلون على أعلى مساحات من الأراضى المخصصة للزراعة ثم يأتى الأقل فى المنزلة إلى السلطان الحفصى(١).

ولعب الوزراء الحفصيون دورًا هامًا فى عمليات توزيع الإقطاعات وخاصة على القبائل القوية صاحبة العصبة والنفوذ والشوكة، فنجد أن وزير السلطان المستنصر يساعد السلطان ويقنعه بالتقرب من قبيلة توجين وأقطعهم ناحية مقرة حتى يكونوا خط دفاع أول فى وجه قبائل الدواودة من بنى رياح وذلك أثناء حرب السلطان المستنصر معهم عام ٦٦٤هـ / ١٢٦٥م(٢) ولكن سيطر الدواودة على الزاب والحضنة وجبل أوراس(*) والتلول الشمالية وعجزت الدولة عن التصدى لهم فكان من الوزراء إلا أن أشاروا على السلطان باصطناعهم واستمالتهم فأقطعوهم الأراضى التى استولوا عليها من السلطان مثل مقرة ونقاوس مسيلة(**)(٣) وكذلك قام وزراء السلطان المستنصر بعد التشاور معه فى أقطاع قبائل أخرى أقطاعات من أجل استمالتهم

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٣٢٢

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٥٩ – ٦٦٠، مصطفى أبو ضيف، المرجع السابق / ص ١٢٤ – ١٢٥.

(*) جبال أوراس: هى كتل جبلية عالية جدًا تقع على مسافة ثمانين ميلًا من بجاية وستين ميلًا من قسطنطينية وتتوفر بها مياه الآبار التى يتاح ماؤها فى السهل راجع الوزان، وصف أفريقيا، ص ٤٧٥.

(**) مسيليه: مدينة قديمة تقع على مسافة مائة وأربعين ميلًا من بجاية وسكانها لها نشاطهم الاقتصادى من زراعة وصناعة منهم المزارعون والصناع، حيث فرض العرب نفوذهم عليهم واستولوا على أموالهم وأقواتهم، راجع الوزان، المصدر السابق، ص ٤٢٤.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص ٦٦٢ – ٦٦٣.

فمثلًا أعطى مشايخ بجهة القيروان، كما أعطى أحد المشايخ وهو أبو رحمة غيث الحكيمي، وميمون بن كرناح الوائلي، كما ساهم وزرائه فى إقطاع أربع قرى بناحية صفاقس والجريد واشمال لأحد مشايخ الكعوب[١] وهنا نجد دور الوزراء الواضح البارز فى عملية الزراعة والاهتمام بها سواء عن طريق تملكهم لإقطاعات زراعية وزراعتها أو عن طريق إعطائها لمن يزرعها مع دفع مقابل مالى للوزير والدولة.

وكانت القبائل المساندة للسلطة المتمثلة فى السلطان الحفصى ووزيره سواء فى فترات نفوذ الوزراء أو قوة السلاطين الحفصيين هى صاحبة النصيب الأكبر من توزيع الأراضى الزراعية وملكيتها وخاصة الأراضى الزراعية فى المناطق البعيدة عن العاصمة[٢] فقام الوزير الأكبر الأسبق ابن الليحانى السلطان الحالى بأمر وزرائه بقيادة وزيره أبى عبد الله بن ياسين بتوزيع الأراضى الزراعية عام ٧١٨هـ / ٨/ ٨٣ على قبائل علاق ودباب[٣] وذلك من أجل زراعتها وكسب ودهم وولائهم، وكذلك اتبع وزراء السلطان الحفصى الفضل سياسة مرنة مع الأعراب فاقطعوهم الأراضى الزراعية الحفصية من أجل زراعتها والاستقرار ومنحهم إقطاعات من أجل مساعدته فى دخول مدينة قسطنطينية التى دخلها سنة ٧٥١هـ / ١٣٥٠م[٤] وكان هدف الوزراء

(١) نفس المصدر السابق، ج ٦، ج ١٢، ص ١٤٩.

(٢) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج١١، ص ٧٤- ٧٥.

(٣) ابن خلدون: العبر، ص٦، ج١٢، ص ٧٥٤، التجانى: المصدر السابق، ص، ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص١٦٢، الزركشى المصدر السابق ص ٦٥.

(٤) ابن خلدون: العبر، ص ٦، ج١٢، ص ٨٢٢.

وسلاطينهم من ذلك هو عملية استقرار القبائل وقيام الزراعة وازدهارها، ونجد ذلك واضحًا أيضا فى عهد السلطان أبى عصيدة ووزرائه أبى يحى زكرياء بأن اللحيانى ومحمد بن أزرقان من حيث ازدهار الزرع والزراعة(١)

ونلاحظ أنه فى عصر السلاطين الأقوياء أو ضعف نفوذ الوزراء كان هناك اهتمام كبير بالزراعة والمزارعين ووجهة السلطة الحفصية عناية خاصة بالفلاحة والأرض مما أدى إلى زيادة الإنتاج ووفرة موارد الدولة حيث الاستقرار وارتفاع مستوى المعيشة مما شجع السلاطين الأقوياء ووزرائهم إلى حركة التعمير والإنشاء التى بلغت أوجها فى العصر الحفصى(٢) حيث قام وزراء السلطان المستنصر ببناء الحنايا التى كان يجرى عليها الماء إلى مدينة قرطاجنة فأصلحها وأجرى عليها الماء(٣)، وازدهرت أيضًا بسبب حرص الوزراء والعلماء والصلحاء والشرفاء من ممارسة الزراعة والاعتناء بالزراعة والمزارعين(٤)

وكان للإقطاعات الزراعية دورها أيضًا فى ازدهار الزراعة حيث ساعدت على استقرار البدو وقيامهم بالزراعة والمساهمة فى عملية الإنتاج وزيادة

(١) ابن دينار: المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٢) الدالى (الهادى مبروك الدالى): مملكة مالى الإسلامية وعلاقتها مع المغرب وليبيا، دار الملتقى للطباعة والنشر، بيروت لبنان (د – ت) ص١٣٣.

(٣) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٥٨.

(٤) البرزلى: المصدر السابق، ج٢، ص١٨٧-١٨٨، الغبرينى: عنوان الدراية، ص ١٧٦، محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص ٣٣٠ – ٣٣١.

الدخل بدلًا من الغزو وقطع الطرق[١] وذلك فى عهد السلاطين الأقوياء حيث وجهوا اهتمام وزرائهم إلى الزراعة والمزارعين على العكس من فترات نفوذ الوزراء أو تحكمهم فى السلطة بعد أن هجر المزارعون الأراضى عام ٧٤٩هـ / ١٣٥٠م بسبب الطاعون الجارف لدرجة أن الشيخ ابن عبد السلام شجع على إعادة إعمار الأراضى وزراعتها بعد بوارها[٢]

وفي أثناء عصر السلاطين الأقوياء ووزرائهم أعطت الدولة اهتمامًا بالغًا بالزراعة وحرصت على بسط نفوذها الاقتصادى والسياسى على كل البلاد سكانًا وأراضى وذلك من أجل تنظيم عملية استغلال الأرض والإشراف عليها وتوزيعها وإقطاعها أقاطع منفعة للقوى المساندة للدولة سواء كانوا وزراء أو قبائل ذات وزن اجتماعى وسياسى، وكذلك من أجل ازدياد المغارم والوظائف التى تؤخذ على الأرض مقابل استغلالها، وهذا يدل على مدى نفوذ وقوة السلطان الحفصى ومدى طاعة وزرائه له مما يترتب على ذلك من انتعاش قوة الدولة السياسية والاقتصادية.[٣]

وعندما يقوى الوزراء ويصبحون أصحاب الكلمة والسلطان الحفصى مجرد رمز فقط العوبة تحركها يد الوزير المستبد به، نجد أن الزراعة تبدأ فى عملية الانهيار بسبب المشكلات التى تطرأ على المجال الزراعى حيث يقل عدد المزارعين وتتراجع المساحات المزروعة وتكثر الأراضى البور[٤] كما وجد

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٣٣٣.

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج١، ص

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٣٣٦

(٤) الوزن: وصف إفريقيا، ج٢، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦

صعوبة بالغة فى اقتلاع وإخراج الفلاحين من أرض الوزراء والقواد، بسبب تغلغل نفوذ هؤلاء المزارعين جيلًا بعد جيل وتمسكهم بالأرض والقيام بتعميرها فزرعوها سودانى وبقوليات كما بنوا فيها منازلهم ليكون بالقرب منها ورعايتها بالاهتمام بها[١] ونجد حدوث مشاكل كثيرة حدثت على الأراضى الزراعية وخاصة فى عهد نفوذ الوزراء الحفصيين، حيث تعرضت كثير من النوازل حدوث منازعات بين المستغل (المزارع) القديم للأرض والمشترى الجديد لها وخاصة عند يسعها من جانب السلطة الحفصية، المتمثلة فى السلطان الحفصى الضعيف ووزيره المستبد[٢] ونظرًا للمشاكل حول انتقال الأرض وتملكه، نجد أن القضاة الحفصيين اشترطوا العقد الأصلى (وثيقة العقار) بالإضافة إلى رسم الشراء ولم تكن نسخة الأرض الأصلية متيسرة غالبًا، حيث كانت وثائق الدولة والسلطة الحفصية، مهملة وقليلة التنظيم مما أدى إلى كثرة المنازعات على أراضى الدولة الحفصية، وبيع الأراضى أكثر من مرة بعد فترة زمنية فتعود مع بيعها المشاكل والمنازعات[٣].

وهنا تبين أن الوزراء الحفصيين كانوا دائمًا على الاستعداد من كسب المال عن طريق مشروع أو غير مشروع لأنه يعلم أن أيامه فى الوزارة قليلة فكانوا يسعون دائمًا إلى جمع المال، فكانوا دائمًا يسعون فى بيع أراضى الدولة، فتتكون ثروات يسهل الهرب بها عند الضرورة وهناك أمثلة تبين لنا نهاية الوزراء المستبدين الذين تم تصفية أموالهم ومصادرتها بعد أن يتم نفيهم أو قتلهم إلى

(١) البرزلى، المصدر السابق، ج٢، ص

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج٢، ص

(٣) البرزلى: المصدر السابق، ج٢، ص

أن تذهب ثرواتهم وتتلاشي[١].

وظهرت مشكلات أخرى منها ضياع العقد الأصلى للأراضى أو اللجوء إلى تزييف هذه الوثائق (العقود)[٢] وأدى ذلك إلى امتلاك الوزراء وقائدى الجيوش إلى ازدياد ملكيتهم الخاصة من الضياع، واستثمار الأموال فى اشتراء العقارات فى حالة ضعف السلطان الحفصى واستبداد الوزراء لدرجة أن العلج هلال قائد الجيش الحفصى الذى كان يعتبر وزيرًا للجند فى عهد السلطان المستنصر كان يستلم يوميًا بيديه ألف دينارًا[٣] وأيضًا قائد الجند نبيل الذى بلغت ثروته عشرين قنطارًا من الذهب وما يقرب ذلك من العقارات والأثاث والمجوهرات، كل ذلك كان مستخلصًا من أيدى الفلاحين الحفصيين[٤] وهنا نجد الوزراء الارستقراطيين قد اتسعت ثروتهم العقارية ذات السمة الإقطاعية بتونس[٥] وقد تمكن الوزراء وكبار التجار من تكون ثروات عقارية ضخمة والسيطرة على ملكيات كبيرة من الضيعات الكبيرة والقرى حيث نجد الوزير أبا عبد الله محمد الرميمى الذى خرج من المرية سنة ٦٤٣هـ /١٢٣٦م والتحق بتونس واستوطن بها، حيث تملك الضياع وشيد القصور وامتلك القرى

(١) محمد عابد الجابرى: العصبيه والدولة معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الإسلامى، دار الثقافة الدار البيضاء، ط١، ١٣٩١هـ، ١٩٧١ م،ص٣٦٣

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج٥، ص ٥٤١

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٩٤ – ١٩٥

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص٣٣-٣٤، محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٣٤١.

الزرية[١]

وهنا نجد أن قوة السلاطين تنعكس على ملكية الأرض الزراعية، ولأن الاستقرار الذى يؤدى إلى ازدهار حماية الزراعة والإقبال الشديد من المزارعين على الزراعة، والعمل على التشييد والبناء وارتفاع المستوى المعيشى وإقبال السلاطين على مشروعات متنوعة ضخمة تساعد على انتعاش خزينة الدولة على عكس نفوذ الوزراء حيث ينصب اهتمامهم على اقتطاعتهم وزيادتها وجمع الأموال.

وعرف المغرب الحفصى نظام الزراعة أو المشاركة[٢] فى الزراعة، والحرث على أن يتساوى الشريكان فى الأرض والبقر والآلة وهذا أدى إلى كثير من المشاكل[٣] التى ظهرت بوضوح في أثناء فترات ضعف السلطان الحفصى وقوة نفوذ الوزراء كما جرت العادة على أن يقوم المزارعون باستعادة البقر من أجل الحرث[٤] وحاول الفقهاء فى عهد السلاطين الأقوياء والوزراء المفوضين من إيجاد مقياس مضبوط أو معيار موحد من أجل تقويم العناصر المكونة للشركة

(١) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص ٤٣ – ٤٤، ابن خلدون: العبر، مج٦، جـ ١١، ص٦١٥.

(٢) المزارعة هى طريقة استغلال الأرض الزراعية بالاشتراك بين المالك والزارع واقتسام المحصول بينهما بنسبة يعينها العقد والعرف ولا تلزم بالعمل لأخ الونشريسي: ج، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٠٥ هامش

(٣) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ١٤٨

(٤) نفس المصدر السابق ج٨، ص ١٥٧، ج٩، ١١٠، كمال أبو مصطفى: جوانب من حياة المغرب، ص ١٦٤، رشا سالم، المرجع السابق ص ٢٢٥، كمال أبو مصطفى: جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية فى المغرب الإسلامى من خلال نوازل الونشريسي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٧، ص١٦٤.

من زرع وآلة وبقر وعمال وكأن هذا أمر ضروريًا لقيام الشركة على أسس صلبة من شانها القضاء على المشكلات والخلافات والنزاعات[١] وكثيرًا ما حدث مشكلة للفلاح الذى يعمل فى الزراعة والبقر والبذور والأرض لغيره فيحصل له السدس أو السبع، واعتبر أبو حنيفة أن ذلك لا يمكن أن يكون شركة، أما أجازه بينما أجازه بعض الفقهاء[٢].

ومع سيطرة الوزراء وضعف السلاطين الحفصيين حيث تفكك الوحدة السياسية للدولة وما يترتب على ذلك من انتشار الفوضى وإهمال الفلاحة وسيطرة البداوة تطورت شركات المزارعة حيث سيطرت زراعة الحبوب الشاسعة على بقية المزروعات من أشجار وخضروات وغيرها وكذلك كثرت مشاكل الشركة بسبب الاتفاق الشفوى وعدم وجود عقد بين المشاركين[٣] وقلت شركات المغارسة والمساقاة عن المزارعة بسبب تعلب وسيطرة الفلاحة الشاسعة لقلة التقنيات المتطورة فى ميدان الرى والمشاتل[٤] وكثرت أيضًا المشاكل والمنازعات عند القسم بين الغارس وصاحب الأرض بسبب عدم الاتفاق مسبقًا على نسبة كل منهما وعندما يقوى الوزراء ويصبحون أصحاب الكلمة والسلطان الحفصى مجرد رمز فقط العوبة تحركها يد الوزير المستبد به، نجد أن الزراعة تبدأ فى عملية الانهيار بسبب المشكلات التى تطرأ على المجال الزراعى حيث يقل عدد المزارعين وتتراجع المساحات المزروعة وتكثر

(١) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص ١٤٨

(٢) أبو يوسف (يعقوب): كتاب الخراج، بيروت، ١٩٩٠، ص ٢٠٦ – ٢١١

(٣) الونشريسي: المعيار، ج، ص ١٥٧

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٤١٦

الأراضى البور[١] كما وجد صعوبة بالغة فى اقتلاع وإخراج الفلاحين من أرض الوزراء والقواد، بسبب تغلغل نفوذ هؤلاء المزارعين جيلًا بعد جيل وتمسكهم بالأرض والقيام بتعميرها فزرعوها سودانى وبقوليات كما بنوا فيها منازلهم ليكون بالقرب منها ورعايتها بالاهتمام بها[٢] ونجد حدوث مشاكل كثيرة حدثت على الأراضى الزراعية وخاصة فى عهد نفوذ الوزراء الحفصيين، حيث تعرضت كثير من النوازل حدوث منازعات بين المستغل (المزارع) القديم للأرض والمشترى الجديد لها وخاصة عند يسعها من جانب السلطة الحفصية، المتمثلة فى السلطان الحفصى الضعيف ووزيره المستبد[٣] ونظرًا للمشاكل حول انتقال الأرض وتملكه، نجد أن القضاة الحفصيين اشترطوا العقد الأصلى (وثيقة العقار) بالإضافة إلى رسم الشراء ولم تكن نسخة الأرض الأصلية متيسرة غالبًا، حيث كانت وثائق الدولة والسلطة الحفصية، مهملة وقليلة التنظيم مما أدى إلى كثرة المنازعات على أراضى الدولة الحفصية، وبيع الأراضى أكثر من مرة بعد فترة زمنية فتعود مع بيعها المشاكل والمنازعات[٤].

وهنا تبين أن الوزراء الحفصيين كانوا دائمًا على الاستعداد من كسب المال عن طريق مشروع أو غير مشروع لأنه يعلم أن أيامه فى الوزارة قليلة فكانوا يسعون دائمًا إلى جمع المال، فكانوا دائمًا يسعون فى بيع أراضى الدولة، فتتكون ثروات يسهل الهرب بها عند الضرورة وهناك أمثلة تبين لنا نهاية الوزراء

(١) الوزن: وصف إفريقيا، ج٢، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١١٦

(٢) البرزلى، المصدر السابق، ج٢، ص

(٣) البرزلى: المصدر السابق، ج٢، ص

(٤) البرزلى: المصدر السابق، ج٢، ص

المستبدين الذين تم تصفية أموالهم ومصادرتها بعد أن يتم نفيهم أو قتلهم إلى أن تذهب ثرواتهم وتتلاشي[١].

وظهرت مشكلات أخرى منها ضياع العقد الأصلى للأراضى أو اللجوء إلى تزييف هذه الوثائق (العقود)[٢] وأدى ذلك إلى امتلاك الوزراء وقائدى الجيوش إلى ازدياد ملكيتهم الخاصة من الضياع، واستثمار الأموال فى اشتراء العقارات فى حالة ضعف السلطان الحفصى واستبداد الوزراء لدرجة أن العلج هلال قائد الجيش الحفصى الذى كان يعتبر وزيرًا للجند فى عهد السلطان المستنصر كان يستلم يوميًا بيديه ألف دينارًا[٣] وأيضًا قائد الجند نبيل الذى بلغت ثروته عشرين قنطارًا من الذهب وما يقرب ذلك من العقارات والأثاث والمجوهرات، كل ذلك كان مستخلصًا من أيدى الفلاحين الحفصيين[٤] وهنا نجد الوزراء الارستقراطيين قد اتسعت ثروتهم العقارية ذات السمة الإقطاعية بتونس[٥] وقد تمكن الوزراء وكبار التجار من تكون ثروات عقارية ضخمة والسيطرة على ملكيات كبيرة من الضيعات الكبيرة والقرى حيث نجد الوزير أبا عبد الله محمد الرميمى الذى خرج من المرية سنة ٦٤٣هـ /١٢٣٦م والتحق بتونس واستوطن بها، حيث تملك الضياع وشيد القصور وامتلك القرى

(١) محمد عابد الجابرى: العصبيه والدولة معالم نظرية خلدونية فى التاريخ الإسلامى، دار الثقافة الدار البيضاء، ط١، ١٣٩١هـ، ١٩٧١ م،ص٣٦٣

(٢) البرزلى: المصدر السابق، ج٥، ص ٥٤١

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٣، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٢٧

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٩٤ – ١٩٥

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص٣٣-٣٤، محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٣٤١.

الزرية[١]

وهنا نجد أن قوة السلاطين تنعكس على ملكية الأرض الزراعية، ولأن الاستقرار الذى يؤدى إلى ازدهار حماية الزراعة والإقبال الشديد من المزارعين على الزراعة، والعمل على التشييد والبناء وارتفاع المستوى المعيشى وإقبال السلاطين على مشروعات متنوعة ضخمة تساعد على انتعاش خزينة الدولة على عكس نفوذ الوزراء حيث ينصب اهتمامهم على اقتطاعتهم وزيادتها وجمع الأموال.

وخلاصة القول أن الزراعة انتعشت فى عهد السلاطين الأقوياء وقلت مشاكلها وكثرت مشروعات الرى والزراعة فازدهرت الزراعة وعم الرخاء بلا حدود على العكس من فترات سيطرة الوزراء على شئون الدولة فيقل الاهتمام بالزراعة بسبب سعيهم لجمع الأموال.

أسباب التدهور الزراعى فى عهد نفوذ الوزراء الحفصيين:

لقد ساعدت عدة عوامل أخرى على تدهور الزراعة وتراجعها فى عهد نفوذ الوزراء منها عوامل طبيعية وأخرى بشرية:

(١) الكوارث الطبيعية والبيئية:

لقد تأثر الإنسان المغربى فى العصر الوسيط بالكوارث الطبيعية والبيئية وبالتالى تأثر المحصول والإنتاج الزراعى مع حركة الإنسان الحفصى[٢] حيث ترك الناس الأرض والزراعة لما ترتب عليها التعسف الجبائى وكثرة الفتن

(١) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص ٤٣ – ٤٤، ابن خلدون: العبر، مج٦، جـ ١١، ص٦١٥.

(٢) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص٣٩٩، الجابري: العصبية والدولة، ص ٤٠٢ – ٤٠٥.

والثورات ووقع هذا التأثير على الفلاح وقل الاهتمام بالفلاحين والزراعة[١] وأيضًا على الحياة الاقتصادية بشتى أنواعها ولكن ماذا كان دور الوزراء الحفصيين أثناء تلك الجوائح وهل استمر دورهم في أثناء فترات حكم السلاطين الأقوياء أم اختلف دور الوزراء في أثناء سيطرتهم وفرض سطوتهم على السلاطين الضعاف.

وكان للجوائح الطبيعية أثرها الواضح على أوضاع الفلاحين حيث أدت المجاعات والأوبئة والجراد[٢] والنار والرياح والبرد والمطر والعفن والطير والغبار والدود والحر والسموم وكل ما لا يستطاع دفعه والمطر إذا كثر عن اللزوم ينتج عنه سيول وفيضانات وقلتها يعنى الجفاف[٣]، إلى تدهور أوضاع الفلاحين وكثرة الأزمات التى تحوم بهم[٤].

وكان الجفاف أكثر خطرًا من بقية الآفات وكان المطر حدثًا هامًا فى حياة الناس، وكثيرًا ما تسبب الجفاف فى ثورات رهيبة، وذلك انعدام المحصول الزراعى، ولجأ الفلاحون إلى التسلف، على أمل إرجاعه فى السنة الموالية، لدرجة أنهم حصدوا زروعهم قبل نضجه، وذلك عام ٦٧٩هـ / ١٢٨٠م مما جعل الناس تأكل القمح فريكًا[٥] وذلك فى عهد السلطان أبى إسحاق إبراهيم

(١) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص ٣٩٩.

(٢) البرزلى: جامع، ج٢، ص، ابن خلدون: العبر، ج١، ص، ابن ناجى، معالم الإيمان: ج٤، ص ١٦٩

(٣) البرزلى، جامع، ج٢، ص، ابن ناجى، معالم الإيمان، ج٤، ص ١٦٩.

(٤) ابن خلدون: المقدمة، ج١، ص٤٠١.

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٥، ابن ناجى معالم الأعيان، ج٤، ص ٢٣١، محمد حسن:

ووزرائه الذين لم يحركون ساكنًا بسبب انشغالهم بأهدافهم وهى السيطرة على أمور الحكم، والتنافس بين الوزراء لجمع الأموال[١] وفى ذلك يقول الزركشى " ورأى الناس أية عظمة فى الزرع أكل القمح فريكا ثم عدم فى سنبله فإذا حصد جمعت الأغمار ولم يجد فيها شيئًا فهلك البقر الذى أكل ذلك الزرع التالف، وكان ذلك فى جميع إفريقية[٢] حيث تفرغ السلطان الى الملذات والراحة، ووفر له الوقت ما يسمح له بإشباع تلك الملذات[٣] وقام بقتل الوزير ابن الجبير وتصافيه أمواله[٤] ولجوء الأعراب للاستيلاء على القرى والمنازل ونهب الأموال[٥] مما زال من معاناة الفلاحين وضاق الحال بين الناس والسلطان ووزرائه فى عقله مما يحدث بإفريقية ولم يحركوا ساكنا، وقد أدى الجفاف الشديد ٨٠٠هـ فى عهد السلطان أبى فارس عبد العزيز الى تحرك القبائل من مجالها وشد رحالها من أجل البحث عن المياه والتربة الخصبة، حيث اجبر بدو برقه أكل العشب والخروج من ديارهم، ولكن الكثير قد مات من شدة الرياح الرملية القوية[٦] ويصفها لنا البرزلى[٧] فيقول " وأخذنا تناديح بالاكراح فيمشى الرجل، ثم يسقط ميتًا من ريح أصابهم، يقال له ريح

المدينة والبادية، ج٢، ص ٦٠٤.

(١) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٣، ص ٤٤، المطوي: السلطنة الحفصية، ص ٢٣٩.

(٢) المصدر السابق، ص ٤٥

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص ١٣٧، المطوي: السلطنة، ص ٢٣٨ – ٢٣٩

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٣

(٥) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٤٩

(٦) البرزلى: جامع، ج٢، ص، محمد حسن: المدينة والباديه، ص ٦٠٤

(٧) جامع، ج٢، ص

السديد، وشاع وذاع أنه فقد من المحمل والتجريدة أزيد من ألف نسمة، وكذا فقد من الركب المغراوى والمغربى بشرًا كثيرًا أيضًا، ولما وردنا على أرضا برقة مات من الركب ومرض شيء كثير، ومن فقد لم يظهر له خبر البته ". مما أثر على عملية الزراعة والجفاف وموت عدد كبير من المزارعين القائمين بأعمال الفلاحة(١) على الرغم من المجهود العظيمة التى يبذلها السلطان أبو فارس ووزرائه من أجل توفير المياه للعطشى عن طريق إنشاء الأصبلة والسقايا(٢). لأن وزراءه كانوا تحت طاعته ينفذون أوامره حيث تميز السلطان أبو فارس عبد العزيز بالشجاعة والحزم(٣).

ولجأ الناس إلى صلاة الاستسقاء فى سنوات القحط والجفاف، وضعف الإتباع حيث فضل بعض العلماء عدم القيام بها تحاشيًا لرد فعل العامة وارتفاع الأسعار(٤) بسبب ما يترتب على الجفاف من تدمير الزرع والمحاصيل(٥) ومعاناة الفلاحين لأنهم الأكثر ضررًا من هذه المجاعات بما تسببه لهم هذه

(١) ابن الخطيب: نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب، تحقيق أحمد مختار العبادى وعبد العزيز الأهواني، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، ج٢، ص ١٣.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ١١٦ – ١١٩، المطوية: السلطنة، ص ٥٩٤، ابن أبى الضياف، المصدر السابق، ص ٢٣١.

(٣) ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص ١٧٥.

(*) صلاة الإستسقاء: عندما يحدث قحط فى البلاد ولا تنزل الأمطار فكان يجتمع السلطان ووزرائه وكبار رجال دولته والقبائل يصلون صلاة الاستسقاء ويدعون الله لنزول المطر، راجع ابن الأحمر: بيوتات فاس الكبرى، ص ٦٤.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ص ٦٠٥

(٥) الونشريسي: المعيار، ج٧، ص ٢٣٠

الكوارث من تدهور وانحطاط حياتهم الاجتماعية[١] والاقتصادية وخاصة فترات ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء حيث أثرت هذه الكوارث على الزراعة والمزارعين خاصة والحياة الاقتصادية عامة فانعكس ذلك على الحياة السياسية وخاصة فترات تملك الوزراء للسلطة[٢] ولكن فى عهد قوة السلاطين أصحاب القوة والسيطرة انتعشت حالة البلاد الاقتصادية وتمتعت بالهدوء فى شتى الميادين المختلفة[٣]حيث التقدم والازدهار والرقى بسبب قوة السلطة المركزية وسيطرتها على أحداث الدولة.

وتوالت الكوارث الطبيعية على تونس الحفصية حيث حدث طاعون ومجاعة عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م فى عهد السلطان الحفصى أبى زكريا يحيى ٦٢٥هـ - ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م فكانت المجاعة شديدة ووجد الناس يموتون فى الأسواق واشتد الطاعون داخل البلاد حيث كان يسعى السلطان الحفصى الى الاستقلال عن الدولة الموحدية الضعيفة وتكون وإعلان الدولة الحفصية وذلك عام ٦٣٤هـ - ١٢٣٦م.

---

(١) ابراهيم القادرى: الإسلام السرى، ص ٢١٤ – ٢١٥

(٢) ابن فضل العمرى (شهاب الدين): مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار، ت: حسن حسنى عبد الوهاب، تونس، (د- ت)، ص٢، عبد الوهاب منصور: قبائل المغرب، المطبعة المملكية، الرباط، ١٩٨٦، ج١، ص ١٣٢، ابن القنفذ: المصدر السابق، المطوي: السلطة الحفصية، ص ٦٧٨

(٣)ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٧٧، مصطفى حسن الكناني: حملة لويس التاسع على تونس، منشأة المعارف، الإسكندرية، ط١ ١٩٨٥، ص ٢٩١.

وحدثت مجاعة أخرى بأفريقيا عام ٦٤٦هـ / ١٢٤٨م[١] فى عهد السلطان أبى زكريا عين ٦٢٦هـ / ١٢٢٧م – ٦٤٧هـ / ١٢٤٩م[٢] حيث اشتدت المجاعة فى البر والبحر وعانت الرعايا وخاصة أهل برقة من الجوع والخوف الذى أنتشر فى جميع أنحاء الدولة الحفصية[٣] وحاول السلطان ووزرائه الذين كانوا تحت أوامره من تحقيق الرخاء والسعادة للناس، فعملوا على الغرس والزرع من أجل التغلب على هذه المجاعات والظروف الصعبة[٤] وتكررت فى عهده أيضًا عام ٦٣٥هـ / ١٢٣٧م غلاء شديد ووباء مفرط هرب منه أكثر أهل البلاد، حيث وصل قفيز القمح ثلاثين دينارًا[٥] وهنا حاول السلطان أبو زكريا الحفصى أيضًا ووزرائه أن يواجهوا هذه المواقف الصعبة وخاصة أن هذه المجاعة والوباء وما نتج عنه من ارتفاع للأسعار حيث عملوا على إسعاد الناس وراحتهم، وأكسبهم أموالًا، ووفروا للرعية الأرزاق، وأكثروا لهم الأفراح حيث جمع رئاسة دولته من العلماء والرؤساء[٦] لأن السلطان عمل من أجل استجلاب محبة الناس عن طريق الإحسان إليهم وخاصة فى أوقات

(١) محمد حسن، المدينة والبادية، ص٦١٤

(٢) ابن خلدون: العبر،مج٦،ج١١، ص، محمد حسن، المدينة والبادية، نفس الصفحة

(٣) نلاحظ أن هذه المجاعة كانت فى عهد السلطان الحفصى أبى زكرياء الحفصى حيث كانت الدولة فى بدايتها والسلطان يحاول تثبيت دعائم حكمه وذلك من مسانده سلطانهم الذى حاول كسب ولاء الناس

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص١١٢، المطوي: السلطنة، ص١٣٠

(٥) محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص٦١٤

(٦) ابن القنفذ: المصدر السابق، ص١١٢ – ١١٣

الشدة[١] وكذلك سار على نهجه ومسلكه وزرائه الذين نفذوا أوامره بكل دقة من أجل كسب ود وحب السلطان والمحافظة على مراكزهم فى السلطة والسعى إلى التقرب إلى السلطان خوفًا من بطشه ومصادرة أموال من يحاول مخالفته حيث كان السلطان دائمًا يحاسب وزراءه ودائمًا ما يكون هو مثلًا يحتذى به[٢].

وفى عام ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م، أنتشر الوباء فى تونس، حيث مرض بها الناس[٣]. وذلك فى عهد السلطان الحفصى أبى عبد الله محمد المستنصر (٦٤٧هـ - ٦٧٥هـ / ١٢٤٩م - ١٢٧٧م) الذى حدث فى بداية عهده صراع وانشقاق حيث الدسائس والحيل حيث نجد أن وزراءه أنفسهم قاموا بمظاهرات ضده أو مساندة الخارجين عليها، وقاوموا وزراءه بأعمال النهب والقتل مما جعله ينقلب عليهم ويقتلهم ويصادر أموالهم[٤]وقد يكون ذلك بسبب انشغالهم عن مصالح الرعية والتفرغ لجميع الأموال والسيطرة على أمور الحكم[٥] فى بداية توليه السلطة الحفصية بسبب صغر سنه[٦] ومع ذلك فأنه حاول أن يعلم ويحكم بالعدل وانتشرت سمعته وساندته جميع البلاد

(١) نفس المصدر السابق، ص١٠٨

(٢) ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص١٩٨.

(٣) أبن الشماع: المصدر السابق، ص ١٢١، محمد حسن: المدينة البادية، ص٦١٥

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص٣٣، المطوي: السلطنة، ص١٧٦

(٥) أبن أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٤، الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٥.

(٦) أبن أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٤، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٢٧.

وأحبته[١].

وتكررت المجاعات والأمراض وارتفاع الأسعار فى عهد السلطان الحفصى المستنصر حيث انتشرت هذه الأوبئة عام ٦٦٩هـ / ١٢٧٠م عندما غزا النصارى تونس حيث انتشرت المجاعات ومات كثير من السكان[٢] وعلى الفور أصدر السلطان الحفصى لوزارائه قراراته بسرعة التنفيذ وأخذ الاحتياطات اللازمة من أجل مكافحة المجاعة وكذلك العدو، وقام الوزراء الحفصيون بتوفير الحبوب فى جميع الثغور والولايات[٣]وأمر وزرائه بأن يشجعوا المزارعين بكثرة الزراعة فى جميع أنحاء البلاد الحفصية[٤].

وكان للجراد دور كبير فى أحداث المجاعات فى بلاد إفريقية الحفصية حيث هاجم الجراد بلا المغرب عام ٦٧٩ هـ / ١٢٧٠م[٥] فى عهد السلطان أبى إسحاق إبراهيم الحفصى (٦٧٣ هـ - ٦٨١ هـ / ١٢٧٩م – ١٢٧٠م)[٦]، حدثت المجاعات وارتفعت الأسعار لأن الجراد أكل جميع الزروع ولم يترك بها

(١) ابن أبى الضياف: المصدر السابق، ص ٢٠٤.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، جـ١٢، ص ٦٧٠.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٦٥ – ٦٧٠.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص١٣٢، وهنا تمكن أن السلطان المستنصر بعد أن أكتسب الخبرة والحنكة السياسية وبدأ يسيطر على وزرائه وعلى جميع أجهزة الدولة فنجد أن الوزراء ينفذون أوامره وذلك بسبب قوة شخصيته وفرضها على جميع رجال دولته

(٥) أبن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص ٤٠٥، السلاوى: الاستقصا، ج ٣، ص ٨٩

(٦) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٨١، أبن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٧، الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٣.

شيئا أخضر[١] ورأى الناس آية عظيمة فى الزرع وأكل الناس القمح فريكا ثم عدم فى سنبله فإذا حصد جمعت الأعمار ولم يوجد بها شيء فهلك البقر الذى أكل ذلك الزرع التالف وكان ذلك فى جميع أفريقية[٢] ونقصت الحاصلات كثيرا فاشتعلت الثورات فى البلاد[٣] وكان السلطان ووزرائه بعيدين عن الناس، فكان السلطان لا ينظر فى عواقب الأمور فكان كثير اللهو وكان مغلوب على أمره، لدرجة أن العرب استولوا على القرى والمنازل ونهبوا الأموال والحريم وهو أول من كتب البلاد الغربية للعرب وزاد فى العوائد وفرض الضرائب من أجل ملذاته فقلت المحابى وكثر الترف والإنفاق[٤].

وتكررت هذه المجاعات والكوارث فى عام ٦٧٧هـ واستمرت حتى عام ٦٩٠هـ حيث أثرت الريح الشرقية المتتالية والقحط الشديد وتبع ذلك مجاعات وارتفعت الأسعار[٥] وكان ذلك فى عهد السلطان الحفصى أبى حفص عمر ابن زكرياء (٦٨٣هـ- ٦٩٤هـ / ١٢٨٤م – ١٢٩٥م)[٦] وتكررت هذه المجاعات أيضا فى عهد السلطان الحفصى أبى عبد الله محمد الثانى أبى عصيدة

(١) الزركشى، المصدر السابق ص ٤٥، عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف فى التعريف وصلحاء الريف، ت / سعيد أحمد أعراب، الرباط ١٩٨٢، ص ١٧٨.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٥، سامية مسعد: الحرب والطبيعة، ص٢٠.

(٣) حامد زيدان: الأزمات الاقتصادية والأوبئة فى عصر سلاطين المماليك، القاهرة ١٩٧٦، ص ١٣، محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص١٧٤.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٩، أبن الشماع: المصدر السابق، ص٧٦

(٥) أبن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص ٤٠٨، ٤٠٩

(٦) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧٠٩، الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٠، ابن الشماع: المصدر السابق، ص ٧٥

(٦٩٤هـ- ٧٠٩هـ / ١٢٩٥م – ١٣٠٩م)[١] وذلك فى عام (٦٩٤هـ / ١٢٩٥م) حيث كانت المجاعة شديدة والوباء عظيم ببلاد المغرب وإفريقية ومصر وهلك فيها خلق كثيرة، وبلغ القمح ١٠ دراهم للمد[٢] والدقيق أواقى بدرهم وكثر الوباء بقابس[٣] وهنا تفرض شخصيه السلطان الحفصى القوى نفسها على وزرائه على العكس من السلطان الضعيف المستسلم لوزرائه حيث نجد ارتفاع فى الأسعار وتدهور فى الزراعة أمام عيون ومشاهده من (أولئك) السلاطين الضعفاء والوزراء المستبدين[٤] وبسبب ذلك أمر السلطان أبو عصيدة وزرائه الذين أطاعوا أوامره على الرغم من حداثة سنة أن يتركوا الأراضى[٥] من أجل التغلب على المجاعات التى تكررت كثيرا فى بلاد المغرب، فكان السلطان أبو عصيدة شديدًا مع وزرائه ومن يحاول أن يستبد به

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٧١٠، الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٣، ابن الشماع: المصدر السابق، ص٨٣.

(٢) المد: بضم الميم والجمع أمداد، ومداد ومدوه فى المكاييل، مكيال اختلفت سعته باختلاف المكان والمذاهب، وباختلاف وحده القياس فهو على رأى الشافعى وأهل الحجاز، ورطل وثلث الرطل بالعراقى البغدادى، وعلى رأى أبى حنيفة هو رطلان،وأمد بالمصرى رطل وسبع ثلث سبع الرطل، وهى أقل من الربع المصرى أى اقل من ربع الكيلة، والمد بالكيلو جرامات يساوى ٥٢٣١٢٥ كيلو جرام ولقد سمى المد مدا لأنه فى الأصل مليء كفى الإنسان. راجع محمد عماره: قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الإسلامية، دار الشروق ١٩٩٢م، ص ٥٢٣.

(٣) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب، ص١٦٤

(٤) الونشريسى: المعيار، ج٤، ص١٦٤.

(٥) ابن الشماع: المصدر السابق، ص ٨٣.

فكان على الفور مكافأته السجن أو القتل[١] وأن الوزير الأكبر ابن اللحيانى استطاع بعض الشيء من الانفراد بتدبير شئون الدولة ولكن تحت سيطرة السلطان[٢]. واستمرت الطبيعة تلقى بغضبها على بلاد المغرب عامه وإفريقية بصفة خاصة، حيث عم البلاد وباء وجفاف أدى إلى المجاعة فى أنحاء البلاد وتمركز هذا الوباء فى منطقه برقة وطرابلس عام (٧٠٦هـ / ١٣٠٦م)[٣] فى عهد السلطان الحفصى أبى عصيدة نفسه حيث مات كثير من الرجال والنساء والأطفال ولم يجدوا شيئا ليأكلوه سوى لحوم الحيات، وكان أكثر الناس موتا هم الغرباء عن أهالى المدينة بسبب شدة الوباء، وتحرك من استطاع الفرار من المدينة خشية الموت[٤] واستطاع الناس من حفر بئر ماء عذب سالم من الوباء يشربون منها ويسقون بهائمهم وزروعهم منها[٥].

وكررت الطبيعة غضبها هذه المرة بالإمطار الغزيرة والسيول والريح عام (٧٢٣هـ - ١٣٢٣م) واستمر إلى عام (٧٢٤هـ - ١٣٢٤م)[٦] فى عهد السلطان الحفصى أبى يحيى ابن أبى بكر (٧١٨هـ - ٧٤٧هـ / ١٣١٨م -

(١) ابن خلدون: العبر، مج ١٢ ص ٧١٠، ٤١٢، المطوي: السلطنة، ص٢٨٨.

(٢) المطوى: السلطنة، ص ٢٨٨.

(٣) التجانى: الرحلة، ص ١٧٩.

(٤) التجانى (أبو محمد عبد الله بن محمد احمد): رحله التجانى (تونس – طرابلس) – (٧٠٦هـ - ٧٠٨ هـ)، الدار العربية للكتاب، ليبيا – تونس ١٩٨٠م ص ١٧٩.

(٥) المصدر السابق نفسه، ص ١٨١.

(٦) ابن القاضى (أحمد بن محمد أبى العافية المكناسى الفاسي): ذيل وفيات الأعيان المسمى درة الحجال فى أسماء الرجال، تحقيق محمد الأحمدى أبو النور، مطبعة السنة المحمدية، القاهرة، ١٩٧١.

١٣٤٦م)[١] واشتد الغلاء ووصل أقصاه واستمر ثلاث سنوات[٢] ولكن هذا السلطان قد أمر وزراءه بطحن أربعة ألاف قفيز قمحا كل يوم، وألف تصنع من أجل الناس والرعية حيث ازدهرت تونس فى عهده[٣].

وبلغ غضب الطبيعة أشده عام (٧٤٦هـ / ١٣٤٧م) واستمر حتى (٧٥٠هـ / ١٣٤٩م)، حيث اجتاح الوباء الأسود كل الأقاليم، وأصيبت البلاد بشدة وطالت مرارته وتأثيره[٤] ومات عدد كبير من الناس يصل إلى ألف شخص يوميا[٥] وحدث هناك تدهور عظيم فى البلاد وتدهورت الزراعة، وظلت الأراضى الزراعية لا تجد من يزرعها ويقول أن تغرى بردى "

(١) ابن خلدون: العبر، مج٦، ج ١٢، ص، ابن الشماع: المصدر السابق ص ٨٧، الزركشى: المصدر السابق ص.

(٢)ابن القاضي: المصدر السابق، ج٣، ص٣٢٤.

(٣) ابن الشماع: المصدر السابق ص٩١، وهنا نجد أنه على الرغم من أن السلطان الحفصى أبو على أبى بكر عاش فى الفترات المضطربة للدولة الحفصية حيث عدم الاستقرار وكثرت الفتن والثورات ولكنه استطاع فعل كل ما يستطيع لكى يؤمن الناس فى دولته.

(٤) ابن حجر العسقلاني: بذل الماعون فى مقتل الطاعون، مخطوط مصور بالميكروفيلم، دار الكتب المصرية، رقم ٢١٩٨، ورقه رقم ٦٩. راجع ابن الأحمر: نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان، دراسة وتحقيق: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٦٧م، ص ٣١٠، البلوى (خالد بن عيسى البلوي): تاج المفرق فى تحلية علماء المشرق، تحقيق وتقديم: الحسن محمد السائح، مطبعة فضالة المحمدية، المغرب، (د.ت)، ج ١ ص٣٤، ابن القاضي: جذوه الاقتباس،ج١ ص٣٠، المقرى: نفح الطيب، ج٥، ص٤٩٨.

(٥) ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص ١٦٩، وكان لهذا الوباء أثرا كبيرا فى فشل حروب السلطان أبى الحسن المرينى حيث توفى عدد كبير من جيوشه وعلى رأسهم وزيره مأمور بن عمر الفودودى الذى توفى بسبب الوباء، راجع المسند ص ٣٦٤.

بقيت أموال العربان سائبة لا تجد من يرعاها"[١] لكثره الأموات من البشر والأغنام والماشية فى جميع البلاد المغربية فسموه باسم الفصل الأكبر أو سنة الفناه[٢] أو الوباء الأول[٣] وبلغ الغلاء أشده حتى بيع قفير القمح بثمانية دنانير[٤] ولم يفعل السلاطين الحفصيون أو وزرائهم أى شيء يذكر لان السلطة الحفصية كانت مفككة وإفريقية الحفصية تقع تحت النفوذ المرينى بقيادة السلطان أبو الحسن المريني[٥] ولم يوجد أحد لنجده الناس بل ظل الوباء يحصدهم ويقتلهم.

وارتفعت الأسعار فى تونس عام٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م[٦] فى عهد السلطان الحفصى أبى إسحاق بن أبى يحيى أبى بكر ٧٥١هـ/٧٧٠هـ/١٣٥٠م-

(١) ابن تغربردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف ابن تغربردى الأتابكي): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٩،ج١٠ ص ١٩٩ – ٢٠٠.

(٢) ابن تغرى بردى: المصدر السابق، ج١٠ ص١٩٩ - ٢٠٠.

(٣) البرزلى: جامع، ج٢ ص ٤٤٦، حيث توفى فيه الشيخ الفقيه أبو عبد الله ألقيس الرماح فقيه القيروان وكان عالما صالحا متعبدا زاهدا.

(٤) ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص١٦٩.

(٥) لم تشر المصادر إلى دور الوزراء أو السلطان الحفصى لمساعده الناس ويقول الكفيف الزرهوني:

- راجع الملعبة: ص ١٥٧. وهنا نجد انحطاط وتدهور شديد فى عملية الزراعة بسبب موت أعداد لا حصر لها من المزارعين واشتد تضرر الناس من هذا الوباء وقلت الأقوات واشتد الغلاء فانعكس ذلك بالطبع على جميع الأوضاع الاقتصادية الأخرى من صناعة وتجارة وبالتالى تلجأ السلطات الحاكمة لفرض الضرائب من أجل الاستمرار فى الحياة المترفة بعيدًا عن عامة الناس التى كان هدفها هى البحث عن الطعام من أجل مواصلة الحياة.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص ٩٥.

١٣٦٩م[١] حيث ارتفعت أسعار الطعام فى تونس حيث بلغ سعر قفيز القمح إلى ١١ درهما ذهبيا والشعير نصف ذلك[٢] ولم يحرك السلطان المغلوب والمستبد عليه من وزيرة ابن تافراجين شيئًا لأن الوزير ابن تافراجين استبد بالحكم وأمور البلاد ونظم واستخلاص رسوم الجبايه، بالإضافة إلى تصديه للهجوم المرينى على الملاك الدولة الحفصية بقياده السلطان المرينى أبى عنان[٣] وتكرر الوباء فى عهد السلطان أبى حفص عام ٧٦٥هـ / إلى عام ٧٦٦هـ حيث وقع بتونس وباء عظيم[٤] ومات خلق كثير من الناس ومعهم الوزير ابن تافراجين الشهير بالمستبد بالسلطان الحفصى آنذاك[٥] وتكررت المجاعة فى أفريقية الحفصية عام ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م فى عهد السلطان أبى العباس احمد الحفصى (٧٧٢هـ - ٧٩٦هـ / ١٣٧٠/ - ١٣٩٤م) ولكنها كانت

(١) ابن خلدون: العبر، مح٦، ج١٢، ص، الزركشي: المصدر السابق ص ٩٢، ابن ابى دينار: المصدر السابق.

(٢) ابن الشماع: المصدر السابق، ص، الزركشى: المصدر السابق، ص

(٣) ابن خلدون: العبر،مج ٧،ج١٣،ص٥٩٨، ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص١٧١، السلاوى: المصدر السابق ج ٣، ص١٨٤، الزركشى: المصدر السابق، ص٩٤، ابن خلدون: التعريف بابن خلدون ص ٥٧، أبو شامة: المرجع السابق ص ٢٠٢، إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، عرض لأحداث المغرب وتطوراته فى الميادين السياسية –الدينية –الاجتماعية –العمرانية، منذ ما قبل الاستلام إلى العصر الحاضر، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ١٩٩٣، ج٢ ص٤٥،٤٠، المنونى: ورقات، ص١٥.

(٤) البرزلي: جامع، ج١، ص ٤٨٠.

(٥) ابن الشماع: المصدر السابق، ص١٠٥، ذكر ابن خلدون وفاته وكذلك الزركشى ، ولكن لم يذكروا سبب وفاته، راجع ابن خلدون: العبر،مج ٦،ج ١٢،ص٨٥٥ – ٨٦٥، الزركشى: المصدر السابق،ص١٠١

أشد وأعظم[١] وتأثرت به جميع بلاد المغرب عامة والدولة الحفصية خاصة، مما أثر على كساد الحياة الاقتصادية وانعكس ذلك على الحياة السياسية للبلاد[٢].

وقام السلطان أبو العباس أحمد ووزرائه وخاصة الوزير الحاجب أبو عبد الله بن تافراجين بإنشاء السبالة وجعلوها حبا من اجل انتفاع جميع الناس بها[٣] ولكن مع ذلك تأثر الفلاحون بتلك الكوارث والمجاعة الشديدة حيث تركوا أراضيهم الزراعية عن طريق بيعها فحدث كثير من المشكلات لأن الأرض ربما لم تكن ملكا لهم لأنها قد تكون أمتاعا[٤] وذلك بسبب تدهور أوضاعهم بسبب تخريب المحاصيل والأرض الزراعية[٥] فتدهورت الزراعة عامة والمحاصيل خاصة وارتفعت الأسعار[٦] واشتد الغلاء فى أنحاء البلاد المغربية عامة ومنها البلاد الحفصية[٧].

وهبت رياح السديد على برقة عام ٧٩٩هـ حيث مات كثير من الناس، وانتقال عدد كبير منهم إلى الغرب[٨] هربا من الطاعون والمجاعة وما صاحبهما

(١) السلاوي: الاستقصا، ج٤،ص ٨٣، إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادى ص٢٩٩،الحريرى: تاريخ المغرب، ص١٨٢

(٢) الحريري: تاريخ المغرب، ص١٨٢.

(٣) ابن الشماع: المصدر السابق، ص١١١،١١٠

(٤) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٩٨، ٩٩، محمد حسن: المدينة والبادية،ج٢،ص٣٠٩.

(٥) إبراهيم القادري: الإسلام السرى، ص٢١٤، ٢١٥.

(٦) إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادى، ص٢٩٩.

(٧) ابن تغرى بردي: النجوم الزهراء،ج١١، ص١٣٠.

(٨) البرزلي: جامع،ج٢،ص٤٨١ حيث سميت برياح الأسرع أو السويدار فكان الرجل يمشى

من ارتفاع فى الأسعار[١]. وكان ذلك فى عهد السلطان الحفصى أبى فارس عبد العزيز (٧٩٦هـ - ٨٣٧هـ / ١٣٩٤م - ١٤٣٤م) ووزيره الأمير محمد بن عبد العزيز وباقى وزرائه[٢] الذين كانوا ينفذون أوامر سلطانهم العظيم دون تردد حيث كانوا دائما تحت طواعية السلطان الحفصى والذى يعد آخر سلاطين بنى حفص العظام، حيث استطاع هذا السلطان السيطرة على مقاليد الحكم وعلى وزرائه وجميع أنحاء دولته وعمل على توحيد الدولة الحفصية حيث عملوا على تأمين العباد وعمرت البلاد وجعل كثيرا من الأحباس لخدمة غير القادرين[٣] وتكررت المجاعة والكوارث الطبيعية فى عهد هذا السلطان العظيم حيث حدث وباء عظيم بتونس عام ٨٠٣هـ / ١٤٠٠م[٤] ثم اشتد الوباء بصوره اكبر فى عام ٨٠٥هـ / ١٤٠٢م حيث شمل تونس وجميع جهاتها ثم حدثت سيول عظيمه لدرجة أنها حملت أشجار الزيتون وألقتها فى أملاك أخرى وألقت بالأخرى فى وادى مجردة وبالتالى حدثت المجاعة وغلت الأسعار كما يقول ابن خلدون فى ذلك أن المجاعة تحدث بسبب كثره الثورات والاضطرابات والفتن، وكثره الجبايات المفروضة على الناس مما يجعل الفلاحون يهجرون أراضيهم فتقل الأقوات وترتفع الأسعار وتحدث المجاعة وكانت المجاعة عام٨٢٦هـ / ١٤١٣م فى بلاد المغرب عامة شديدة وقاسيه

ثم يسقط ميتا واشتد الغلا والجوع، راجع البرزلي، نفس المصدر السابق والجزء والصفحة.

(١) محمد حسن: المدينة والبادية،ج٢،ص٦١٦.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق،،ج١،ص٢٤٢.

(٣) ابن الشماع: الأدلة، ص١١٥،١١٤.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية،ج٢،ص٦١٧.

على البلاد وسكانها حيث خربت البلاد الكبرى وتمزقت وحدتها وانهارت الزراعة والنشاط الاقتصادي[١] وقضت هذه المجاعة على الأخضر واليابس[٢].

وعمل السلطان أبو فارس بن عبد العزيز ووزرائه على توفير اكبر قدر من التموين للمتضررين من المجاعات والكوارث وذلك أثناء حملاته العسكرية فكان يعمر الزوايا التى لجأ إليها أعداد كبيرة من المتضررين[٣].وحدث وباء فى تونس ونواحيها عام ٨٤٧هـ /١٤٤٣م[٤]، وذلك فى عهد السلطان الحفصى أبى عمرو عثمان (٨٣٩هـ - ٨٩٢هـ / ١٤٣٥م - ١٤٨٦م)[٥].

حيث توفى كثير من الناس ومات على أثره الشيخ الفقيه أبو حفص عمر القلجاني[٦] وحدثت على أثره مجاعة عمت تونس ونواحيها[٧] وتكررت الكوارث الطبيعية فى عهد هذا السلطان حيث وقع الوباء أيضا بتونس فى

(١) ابن إياس (محمد بن أحمد بن إياس الحنفي): بدائع الزهور فى وقائع الدهور، حققه وكتب مقدمته، محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط٢، القاهرة، ١٩٨٢، جـ٢، ص١٣.

(٢) ابن القاضي، جذوه الاقتباس،ق٢،ص٣٤٨، دره الحجال، ج٣، ص٢٣٩، الزركلي، الإعلام، م٤،ص٣٠٦، ابن شقرون: مظاهر الثقافة المغربية، دراسة فى الأدب المغربى فى العصر المريني، دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، ١٩٨٥، ص٢٢٠.

(٣) ابن ناجي: معالم الإيمان، ج٣، ص٢٠٩، ج٤، ص٩٩.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص١٤١.

(٥) ابن خلدون: العبر، مج٦،ج١٢،ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص، ابن أبى دينار: المصدر السابق، ص، الزركشي: المصدر السابق، ص.

(٦) الزركشي: المصدر السابق، ص١٤١.

(٧) محمد حسن: المدينة والبادية،ج٢،ص٦١٧.

جمادى الأولى عام ٨٥٧هـ ١٤٥٣م فانتقل السلطان أبو عمرو عثمان من الحفصية إلى سانيه بارود ثم انتقل منها إلى سانيه توزر خوفا من الفناء أثناء الوباء[١] ومات الكثير من العامة وخاصة الفلاحين الذين يموتون بسبب تلك الأوبئة[٢] وحدثت ريح شديدة فى رجب، فقلعت كثيرا من شجر الغابة[٣] ثم وقع فى أواسط شوال مطر ببرد قدر بيضه الدجاج وأكبر من ذلك[٤]، وتكررت المجاعة مرة أخرى فى عهد السلطان الحفصى أبى عمرو وذلك عام ٨٦٢هـ / ١٤٥٥م حيث اشتدت المجاعات وارتفاع الأسعار، واشتد غلاء الطعام فبلغ قفير القمح أربعة دراهم ذهبا والشعير على الشطر من ذلك، فشكى الناس للسلطان ووزرائه قله الطعام وشدة الغلاء فأمر السلطان ووزراءه بأن يخرجوا من المخزن كل يوم ما يصنع منه ألف خبزه وتفرق بتونس بباب ينتجنى، فقاموا بتفريقها فى ٣ ربيع الثانى واستمر إلى رجب حتى كثر الطعام الجديد ورخص ثمنه[٥].

وتكررت المجاعات والأوبئة فى عهد السلطان أبى عمرو عثمان وذلك لطول فترة حكمه حيث حدث طاعون بالمغرب الأوسط عام ٨٧١هـ[٦] واستمر إلى عام ٨٧٣هـ ثم تكرر مره أخرى وارتفع أثره على البلاد التونسية ،

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص١٤٧.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٤٥.

(٣) الزركشي: المصدر السابق، ص١٤٩ – ١٥٠، الونشريسي: المعيار،ج٨،ص٢٨٠، ج٥،ص٢٣٦.

(٤) الزركشي: المصدر السابق، ص١٥٠.

(٥) الزركشي: المصدر السابق، ص١٥٠.

(٦) ابن مريم: البستان، ص٢٢٤.

فبلغ عدد الموتى حوالى ألف شخص يوميا[١] وكان الفلاحون هم الأكثر ضررا فى أوقات المجاعة على الرغم من عملهم بالزراعة فيتركون الأراضى، ولا يجدون ما يأكلونه وبالتالى يترك البادية وينتقل إلى الحضر[٢] من أجل الحياة والعيش ويلجأ إلى التسلف من المتاجر بشروط مجحفة ، حيث نجد الفلاحين فى وضعية فقيرة دائما[٣] على الرغم من سعيهم الدائم للاتصال بعضهم البعض بسبب قرب القرى من بعضها البعض ليشعروا بالأمن ويشجعون بعضهم على الاستقرار وتخفيف الشعور بالخوف فى ظل الظروف السياسية من صراعات وفتن والظروف الطبيعية من أوبئة ومجاعات وبرد وسيول[٤].

وخلاصة القول نجد أن السلاطين الأقوياء ووزراءهم عملوا على قدر المستطاع من أجل تكوين الأماكن التى تساعد المتضررين من المجاعات والكوارث الطبيعية على العكس من الوزراء المستبدين بالحكم وسلاطين ضعاف لا يحركون ساكنًا، فكان هدفهم الأول الاستمرار فى السلطة وجمع واكتناز الأموال دون النظر إلى عامة الناس، فأثرت الكوارث الطبيعية على وضعية الفلاحين الذين هجروا أراضيهم وقراهم مما أدى إلى بوار الأراضى وقلة المحاصيل فانعكس ذلك على التجارة والصناعة التى تأثرت تأثرًا عظيمًا

(١) الزركشي: المصدر السابق، ص١٥٨.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٧،ص٦٢، محمد حسن: المدينة والبادية،ج١، ص٦١، إبراهيم القادرى: الإسلام السري، ص٢١٥٠،٢١٤.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، جـ، صـ، البرزلى، المصدر السابق، ج٢، ص.

(٤) ليفى بروفنسال: الإسلام فى المغرب والأندلس ترجمه: عبد العزيز سالذم، مراجعه لطفى عبد البديع، مكتبه نهضة مصر، القاهرة (د – ت) ص٢٦٢

بذلك، واشتد وانتشر الخوف والفزع فى البلاد وذاعت عمليات السلب والنهب فى عهد السلاطين الضعاف والوزراء المستبدين، إبان فترات الضعف والتدهور، على العكس من السلاطين الأقوياء ووزرائهم الذين سعوا إلى تأمين البلاد والناس، وتوفير الطعام لأكبر عدد منهم بالإضافة إلى الملبس والمشرب حتى يستطيعوا التغلب على المجاعات والأوبئة.

obeikandl.com

دور الوزراء فى الحرف والصناعات

تعتبر الحرف والصناعات من أهم مظاهر النشاط الاقتصادى فى المجتمع الإسلامى، ولذلك أولاها المفكرون المسلمون جانبا من اهتمامهم وعنايتهم، وحاولوا تصنيفها وتباين أنواعها وفق أسس متعددة ومختلفة(١) ويعتمد السكان فى الدول الحفصية على أهم الأنشطة المتعلقة بالحرف والصناعات لسد احتياجاتهم(٢) وكانت افريقية بلدا صناعيا طوال العصور الوسطي(٣). حيث تعددت الصناعات وازدهرت بسبب وفرة مقومات الصناعة فانتعشت الحياة الاقتصادية بسبب ازدياد الطلب على الصناعات التونسية، فلجأ الصناع(*) أيضا إلى شراء منتجات الفلاحين من أجل تكوين الثروات، وبالتالى وصلت الصناعات إلى أعلى مستوى من البراعة والتأنق مما أدى إلى العيش

(١) إخوان الصفا: رسائل إخوان الصفا وخلان الوفا، مج١، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت ١٩٥٧، ص٢٨٧، ابن خلدون: المقدمة،ج، ص.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج٢،ص٢٤٠، محمد سويسى: المرجع السابق، ص٦٨، رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٤٦.

(٣) نجاة باشا: التجارة فى المغرب الإسلامى من القرن الرابع الهجرى وفى القرن الثامن الهجرى، منشورات الجامعة الإسلامية، كلية الأدب والعلوم الإنسانية، تونس ١٩٧٦، ص ٤٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص٢٤٠.

(*) عرفت بلاد افريقية مثلها مثل باقى الدول المعاصرة لها ثلاث أصناف للصناع فهناك الصانع الخاص الذى يمتلك الآلات والصانع المشترك هو ليس بأجير عند رب عمله، وإنما يجلس لخدمه كل من يقدم له حاجته وأخيرا الصانع المتجول مثل صانع الأدوات الخشبية والحديدية وكانت حياتهم صعبه، راجع أبن رحال:كشف القناع، ص٨٠،٧٦،٧٣، إبراهيم القادرى: الإسلام السرى، ص٢١٧ -٢١٨.

حياة مترفة تتطلب الكثير من الصناعات الجديدة[١].

وقد نظم السلاطين الحفصيون الأقوياء الصناعة فى إفريقية تنظيما دقيقا لمراقبتها وذلك فى عهد السلاطين الأقوياء، حيث حصروا أهل كل صنعة فى سوق واحد خاص بهذه الصناعة،يمارس الصناع فيها عملهم، وهى عبارة عن دكاكين ينشأها الوزراء بأمر من السلطان الحفصى القوى على نفقة الدولة فى مكان مربع الشكل، يحيط به سور من كل الجهات ويدخل إليه من باب واحد[٢] وكان الأهالى يقومون ببناء هذه الدكاكين بجوار منازلهم على حسابهم الخاص[٣].

وفى عهد السلاطين الأقوياء العظام تنعم البلاد بالأمن والاستقرار والرخاء ويقضون على مظاهر الفوضى فى البلاد، أثناء فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين، حيث يقوم السلطان الحفصى القوى ووزرائه المنفذون لأوامره بتأمين العباد والطرق[٤] ومثال على ذلك فى عهد السلطان الحفصى أبى ذكريا الذى حقق السلم والأمان بتوفير الازدهار الاقتصادى، فانتعشت الصناعة والزراعة بقوه وبالتالى ازدهرت التجارة[٥] وعندما توفى فى ٢٩ جمادى الأخر عام ٦٤٧هـ / ٩

(١) ابن خلدون: المقدمة،ج، ص، محمد سويسى: أنماط العمران، ص٢٢ -٢٣، ٣٣.

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات،ج ٢، ص ٧٢٠ نلاحظ هنا أن السلطان الحفصى القوى المسيطر على وزرائه يصدر أوامره بعملية الإنشاء وكان على الوزراء التنفيذ والمتابعة حيث لم تذكر المصادر مباشره حركة ودور الوزير ولكن يمكن القول بأن الوزير هو المسئول عن عمليه الإنشاء، ولكثرة الأوامر الخيرية للسلاطين فى بداية عهدهم عند توليهم السلطة من أجل اكتساب رضا الناس والعامة.

(٣) أبن القنفذ: الفارسية، ص ١٥٧.

(٤) المصدر السابق، ص١١٢.

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج١،ص ٥٤، يوسف فهمى الجزايرلى، الجزائر أرض البطولة، ص٣٢٧.

أكتوبر عام ١٢٤٩م، ترك خزينة تزخر بالأموال[١].

وفى فترات نفوذ الوزراء واستبدادهم بالسلاطين الضعاف تنعدم حاله الأمن والاستقرار بسبب سعى الوزراء إلى جمع الأموال بالطرق المشروعة والغير مشروعة[٢] حيث ضعفت هيبة الدولة، وكثرت هجمات الأعراب على المدن، وبالتالى تدهورت الصناعة وساء حال الصناع[٣]. والصناعة مثل الزراعة والصناع مثل الزراع، فإذا كان المزارع هو أساس النشاط الزراعة، فيعتبر الصانع هو أساس الإنتاج الحرفي، فهو القائم ليبيع صنعته سواء كان بالسوق أو الدار، فإذا تخصص الصانع فى مهنة ما، يجعله العنصر المميز لها، دون الاهتمام بمكان العمل، وهو يتوسط هرم المنتجين بين المعلم المالك لوسائل الإنتاج والأجير الوقتي، والذى كان أقل مكانة منه[٤]، وكان للصناع وخبراتهم دور كبير فى ازدهار الصناعات، ولم يقتصر لقب الصناع على الرجال فحسب بل كانت للمرأة دور هام كصانعه[٥] وبالتالى شارك جميع أفراد الأسرة رب الأسرة الصانع فى صنعته، ومن هنا أصبحت الصنعة متوارثة من جيل إلى أخر داخل الأسرة الواحدة[٦] بل ربما تتأثر باقى الأحياء الأخرى الموجودة

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٦٧، أبن القنفذ: الفارسية، ص١١٣.

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص٦٧٩، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٤ – ١٠٥، ١١٦.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٠٥، ١١٦.

(٤) البرازلي: ج٣، ص٤٩٨.

(٥) الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٤٧.

(٦) عثمان الكعاك، العلاقات بين تونس وإيران عبر التاريخ، تونس، ١٩٧٢، ص١٨٨، عز الدين احمد، النشاط الاقتصادى، عز الدين أحمد موسى: دراسات فى تاريخ المغرب

بالمدينة بصنعة معينة يتقنها الجميع. ومعها انتشرت الدكاكين لخدمة هذه الصنعة فأخذت على هذه الصناعة والآلات والمواد الأولية اللازمة للصناعة[١] وبالتالى لابد من توفير الأمن والأمان من أجل ازدهار هذه الصناعة. وهذا الأمن لا يتوفر إلا مع وجود سلطان قوى وجهاز إدارى مطيع يقوده وزير تنفيذ وليس وزير مستبد يرهق الصناع بالضرائب وغيرها من الالتزامات.

وكانت للحروب المستمرة فى عهد فترات نفوذ الوزراء واستبدادهم وضعف السلاطين دور كبير فى مقتل الكثير من الأيدى العاملة الماهرة، حيث يتدهور المجال الصناعى بوجه خاص والاقتصاد الحفصى بوجه عام، حيث الحروب سواء كانت داخليه ضد الثورات والخارجين على الدولة أو الحروب الخارجية ضد القوى النصرانية والدول المجاورة من بنى مرين فى المغرب الأقصى وبنى عبد الواد فى المغرب الأوسط أثرها المدمر على الحياة السياسية والاقتصادية الأفريقية الحفصية[٢]

وما أكثر تلك الحروب والفتن عندما يستبد الوزراء بالسلاطين وتكثر الخلافات بين الوزراء وبعضهم البعض حيث دمرت مدن بأكملها وحملت بين أطلالها صناع وحرفيين ومزارعين بأعداد لا تحصى، فأدى تدهور المدن والقرى أيضا إلى هلاك العمران وقلقله الاستقرار فأثر ذلك على الحياة الاقتصادية فيقول ابن خلدون " أن تراجع العمران وخفه السكان بالمدن

الإسلامي، دار الشروق، ط١، بيروت، لبنان، ١٩٨٣، ص ٢١٦

(١) احمد بن عامر، الدولة الحفصية، ص٢٧

(٢) إبراهيم حركات: النشاط الاقتصادى الإسلامى فى العصر الوسيط، مطابع أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، (د.ت)، ص٢٣٨.

يؤدى لقلة الصناع وتستمر الصناعات فى التناقص إلى أن تضمحل[١] وتضطرب الحياة الاقتصادية وترتفع الأسعار[٢]، وبالتالى تتدهور حياة الصناع والحرفيين فتكسد الصناعة فى ظل هذه الظروف السياسية المنحدرة وخاصة فى الطور الثانى للدولة الحفصية حيث مؤامرات الوزراء التى أدت إلى انقسام الدولة إلى ثلاثة إمارات هى تونس، وبجايه، وقسطنطينية ونزول المسيحيين لجزيرة جربه عام ٦٨٨هـ / ١٢٨٩م فى عهد السلطان أبى حفص[٣].

بالإضافة إلى محاولات بنى مرين لاحتلال افريقية عام ٧٤٨هـ / ١٣٤٦م[٤] بسبب أيضا الوزير الحاجب ابن تافراجين الذى ساعد أبا حفص عمر بن أبى بكر للاستيلاء على السلطة من أخيه أبى عباس وأخذ البيعة العامة والخاصة[٥] فأدى كل ذلك إلى الانهيار الاقتصادى عامة والصناعة والحرف بصفه خاصة.كل هذه المشكلات والأوضاع المضطربة ساهمت بالتأكيد وأدت إلى انحطاط مكانه الصناع وتدهور صناعتهم وحرفهم بالإضافة إلى تنازعهم فيما بينهم،وعرضت تلك النوازل على الفقهاء الذين سعوا بكل الوسائل الشرعية من خلال الكتاب والسنّة من أجل حلها وفك

(١) المقدمة، ج٢، ص٨٦١ – ٨٦٢.

(٢) ابن أبى دينار: المؤنس، ص١٤٩، الزركشى: المصدر السابق، ص٩٥.

(٣) التجاني: الرحلة، ص١٢٦.

(٤) ابن القنفذ: الفارسية، ص.

(٥) الزركشى: المصدر السابق، ص٨٠، أبن القنفذ: الفارسية: ص١٧٠، عبد الهادى التازى: التاريخ الدبلوماسى، ج٧، ص٢٨، الأنصارى: فهرست الرصاع، ج ٢٨، الهامش (٥)، مبارك الميلى: تاريخ الجزائر، ص٧٤٩.

الاشتباك بين المتنازعين[١] وازدادت هذه المشاكل والخلافات أثناء فترات حكم الوزراء المستبدين والسلاطين الضعفاء لدرجه حدوث نزاعات بين الصناع والزبائن[٢] ويقول البرزلي[٣] " إن الصناع وأهل الحرف شأنهم فى ذلك شأن أهل القرى والعلماء من اشد الناس تنافسا وتحاسدا.

وعلى الرغم من الحالة المتردية للصناع والصناعات فى فترات نفوذ الوزراء ولكن الصناعات ازدهرت فى عهد السلاطين الأقوياء بمساعده وزرائهم المخلصين المنفذين لأوامرهم والقائمين على خدمه مصالح السلطة الحفصيه، حيث عرفت الصناعات والحرف ازدهارا كبيرا وبلغت شهرتها العظيمة فى جميع الأسواق الأوربية[٤]

واستطاعت الدولة الحفصية بفضل السلاطين الأقوياء ومساعده وزرائهم لهم من أجل استقرار البلاد وتوفير الهدوء والأمن والحفاظ عليه ساعد على ازدهار وانتعاش الصناعة أكثر من البلاد الأوربية المعاصرة لها التى لم تستطع أن تصل إلى هذا التقدم والرقى فى الصناعات[٥]. وعندما نجد سيطرة الوزراء على مقاليد الحكم وضعف السلاطين تزداد معهم الخلافات التى دائما ما كانت

(١) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص٢٤١، البرازلي، جامع، ج ٣، ص ١٩٦،١٩٧، ٥٤٥،٥٤٤، ص٥٦٠، ٥٦١.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٥٧.

(٣) جامع، ج٢، ص٣٩٣.

(٤) Poncet (j): Prosperite et de cadence ifriquen nes in chaiers de ta tunisie I ١٩٦١. pp٢٢١ "٢٤٣

(٥) Mas latrie: (L.D.E): apercu des relations commerciales de l, italie septentrionle avec l,algerie au m. a. Paris , ١٨٤٥ p ١٩.

تنشب بين أصحاب الأموال والصناع[١] مع انحطاط شديد للصناعات وطائفة الصناع والحرفيين وغياب دور المحتسب وقله نشاطه ومراقبته للصناع مما أدى إلى تخلى الصناع والحرفيون عن أمانتهم والسعى إلى اكتساب الرزق بشتى الطرق حلال أو حرام[٢] مع غياب نظام النقابات التى تحمى حقوق الصناع والحرفيين من السلطة وأصحاب العمل والمال وبالتالى كانت طائفة العمال والحرفيون ضعيفة لا ترتقى إلى نقابات قوية[٣] فلجا الصناع والحرفيون ألى الكذب والتحايل فى حالات الحوادث مثل الحريق وغيرها من أجل أخذ تعويض حتى فى حاله عدم حدوث تلف بالبضاعة[٤].

ومع ازدياد نفوذ الوزراء وتحكمهم فى شئون الخاصة والعامة فرضوا الضرائب الباهظة على الصناع وصناعتهم، فتدهورت الصناعة وساءت حالة الصناع وازداد فقرهم[٥] ولم تتركهم الطبيعة لظلم وتعسف الوزراء المستبدين وجامعى الضرائب القاسيين عليهم، بل أثرت الكوارث الطبيعية على الصناع والصناعات ولم يجدوا من ينقذهم من هذه الكوارث سوى السلاطين

(١) الونشريسى: المعيار، ج ٨، ص٢٢١.

(٢) المصدر السابق، ج ٧، ص١٦٣.

(٣) محمود إسماعيل: الإقطاع فى العالم الإسلامى. من منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العشر الهجرى. بين الجدل النظرى والواقع التاريخى، حوليات كليه الآداب تصدر عن مجلس النشر العلمى، جامعة الكويت، الحولية الحادى عشر، الرسالة التاسعة والستون، ١٩٨٩، ١٩٩٠، ص١٦، ١٧٧.

(٤) الونشريسى:المعيار، ج ٨، ص٣٢٨.

(٥) إبراهيم بركات: النشاط الاقتصادى، ص٢٣٩، برنشفيك: المرجع السابق، ص ١١٦.

الأقوياء[١] فتعطلت الصناعات وتراجعت فى فترات نفوذ الوزراء بسبب أوضاع البلاد السيئة[٢]. وكثرت ثورات الأعراب ضد السلاطين الضعفاء وزيادة نفوذهم وفسادهم فى البلاد وخاصة فى الطور الثانى للدولة الحفصيه[٣] واشتدت الحكومة الحفصية فى فرض الضرائب الباهظة على الصناع وأصحاب المهن لمواجهة الثورات والغزو الخارجى حتى جاء السلطان أبو فارس عبد العزيز التقى الورع ووزرائه العادلون وأسقطوا كل هذه الضرائب عن كاهل الصناع[٤].

وعلى العكس فى فترات قوة الدولة وخاصة فى بداية الطور الأول لقيام الدولة والطور الثالث حيث كان أهل صناعة سوق واحد مثل سوق القماريين، والسراجين، والدباغين، والصباغين، والعطارين[٥] وكان على كل رأس صنعة أمين أو عريف* من أجل تنظيم الصناع[٦] وكان يعين من قبل المحتسب أو

(١) الونشريسى: المعيار، ج٥، ص٢٣٤، سامية سعد، الحرب والطبيعة، ص٣ -٤٠، محمد حسن: المدينة والبادية،ج، ص٥٦، رشا سالم: المرجع السابق، ص، محمد إسماعيل: المرجع السابق، ص.

(٢) رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٥٦

(٣) التجانى، الرحلة، ص

(٤) ألترجمانى (أبو عبد الله الترجمانى الأندلسي): تحفة الأريب فى الرد على أهل الصليب، تقديم وتحقيق وتعليق: محمود على حماية، دار المعارف، ١٩٨٢، ط٣، ص١٤.

(٥) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٤٧، منى سالم عبد العزيز: المرجع السابق، ص٩٣

(*) ترجع خطة العريف إلى الفترة الإسلامية التأسيسية وكانت مرتبطة بالتنظيم العسكرى والاجتماعى وعرفت فى المغرب الإسلامى منذ القرن السادس الهجرى، راجع البرزلى، ج٢، ص١، ابن مرزوق، المسند، ص ١٩٤، Goitein: A Mediterranean society , ti , pp , ٨٤ , ٤٤٤

(٦) الصفا قصى: نزهة النظار، ص ٣٥

القاضى لمراقبه الصناع ومراقبة الإنتاج وجودته ومنع تسرب الغش للصناعات[١] ولم يتهرب الصناع وأصحاب الحرف من عمال الجباية والسلطة المنفذة لها وهو وزير الاشغال الذى اختار رجاله على أسس دينيه ومن يتصف بالعدل والورع فكان كل صانع يدفع ما عليه من أموال دون تأخير[٢] وبالتالى ازدهرت الصناعات فى الدولة الحفصية ومن أهم هذه الصناعات:

صناعة الغزل والنسيج:

ازدهرت صناعة الغزل والنسيج فى الطور الأول والثالث للدولة الحفصية واشتهرت مدن بأكملها بالصناعات الكتانية والقطنية حيث انتشرت مراكز صناعة الكتان بالمدن الساحلية مثل بونه وبجايه، وعرفت مدينة تونس بصناعة القماش الأفريقى الذى يتميز بنعومته وجودته لأنه يصنع من الكتان والقطن معا أو من الكتان فقط، ولذلك كانت اسعاره مرتفعة[٣] بالإضافة إلى شده إتقان النساء لهذا الغزل[٤] وفاق أهل تونس غيرهم من البلاد فى أغطيته الرأس[٥]. ولكثرة وجود الكتان والقطن* بمدينة بجايه وقسطنطينية قامت

(١) البرزلى، جامع، ج، ص، رسالة ابن عبدون، ص٢٤

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب: ورقات، ج ٢، ص ٧٢، ٧٣

(٣) العمرى: وصف افريقية، ص ٧ ، ٨، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص٢٤١، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص٤٦٨، عبد العزيز الدولالتي: مدينة تونس فى العهد الحفصي، تعريب محمد الشامي، عبد العزيز الدولاتلي، دار السراس للنشر، ط١، تونس، ١٩٨١، المرجع السابق، ص٦٨

(٤) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٤٤٦

(٥) الصفا قصى: نزهة النظار، ص ٣٥، منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص٩٩

(*) أصله من الشرق الاقصى وانتشر فى المغرب الإسلامى خلال العصر الأوسط وصناعته

صناعة الأقمشة الكتانية، فكانت خشنة غليظة[١] وكانت مدينة سوسه من أهم مراكز صناعة الكتان بافريقية[٢] فكانت تنمو النباتات فى الأحواز المنتشرة بين الحمامات ومدينة سوسه، حيث توجد الآبار اللازمة لنفع الكتان ثم يرسل إلى المصانع بسوسه من أجل تبيضه وتصنيعه، وحسن غزله وارتفاع جودته وبيع المثقال منه بمثقالين من الذهب[٣] كما عرفت مدينة سوسه بالعمائم السوسية[٤] وكانت تدل العمامة حسب طريقة وضعها على وظيفة الشخص ومنزلته الاجتماعية وأصله.

كما قام سكان قفصة توزر بزراعة الكتان وبلاد الجريد ولكن بكميات قليلة[٥] لا تقارن بتونس أو سوسه فى عهد السلاطين الأقوياء ومساعدة وزرائهم ولكن فى عهد نفوذ الوزراء وهجوم الأعراب على المزارع، وبث الرعب فى نفوس سكان المدينة بالإضافة إلى جور السلطة الحفصية الممثلة فى

وتحويله تشبه صناعة الكتان ولكنه أقل جودة أكثر صلابة وكان يستعمل لصناعة الحبال وشباك الصيادين والورق والثياب راجع أبن حوقل صورة الأرض، ص، الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٢٢ – ٤٢٣، الإدريسى: نزهة المشتاق، ص.

(١) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٢٢، ٤٧٤، محمد حسن، المدنية والبادية، ج١، ص٤٧٦.

(٢) الاستقصا، ص، محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٤٧٦، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢،ص ٣٤٨.

(٣) التجانى: الرحلة، ص، الحميرى: الروض المعطار، ص.

(٤) محمد حسن، المدينة والبادية، ج١، ص٤٧٦، عبد العزيز الدولاتلى: المرجع السابق، ص ٦٩.

(٥) ابن السعيد: بسطة الأرض، ص٦٣، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص٢٤١.

الوزير المستبد، أدى إلى هجرة السكان إلى مناطق أخرى[١] وبالتالى تدهورت زراعة الكتان والصناعات القائمة عليه[٢]، على العكس من عهد السلاطين الأقوياء الذين يعملون على انتعاش صناعة المنسوجات الكتانية وتصديرها إلى الخارج وخاصة بلاد المغرب الأقصى[٣].

انتشرت زراعة القطن فى واحة قفصه وبلاد الجريد وقرب مدينة تونس[٤] وقد خصصت السلطة الحفصية سوقا للقطانين منذ القرن السابع الهجرى،الثالث عشر الميلادى بمدينة تونس شمال جامع الزيتونة وتولى الأمين القطان مهمة سير هذه المهنة[٥] ولم تصنع الأنسجة القطنية من القطن الخالص ولكنها خلطت بخيط آخر من الكتان أو الحرير، ونجد أنسجة بتونس مصنوعة من القطن والكتان، وكان القماش الذى يصنع أيضا من القطن والحرير معا وأطلق عليه القماش السفساري[٦].

ومع ذلك لم تزدهر المنسوجات القطنية ازدهار المنسوجات الأخرى بسبب قلة زراعة القطن فى افريقية وقلت كمية الإنتاج[٧]. ولم تحظ صناعة

(١) منى سيد: المرجع السابق، ص١٠٠

(٢) محمد سويسي: أنماط العمران البشرى بأفريقية وجزيرة المغرب حتى العهد الحفصي، مركز النشر الجامعي، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس ٢٠٠١، ص ٢٢، ٢٣

(٣) الدولاتلي: المرجع السابق، ص٦٨

(٤) الإدريسى: نزهة المشتاق، ص، التنبكتى: تحفة الألباب، ص١١٩

(٥) محمد حسن المدينة والبادية، ج١، ص ٤٧٦

(٦) القلقشندى: صبح الاعشى، ج ٥، ص ١٠٢، ١٤٢، عبد العزيز الدولاتلى، المرجع السابق، ص٦٩

(٧) منى سيد: المرجع السابق، ص١٠١

المنسوجات الحريرية بنفس شهادة الصناعات الصوفية أو الكتانية وكانت مدينة قابس هى رائدة الصناعات الحريرية بسبب وجود زراعة أشجار التوت، فأصبحت البيئة الطبيعية المناسبة لدودة القز المنتجة لخيوط الحرير التى تعتبر واحدة من أطيب وارق أصناف الحرير(١).

وفى فترات نفوذ الوزراء واستبدادهم بالسلطة وانتشرت الحرب والمنازعات والخوف والفزع بين الناس توقفت صناعة الحرير فى هذه المدينة حتى الطور الثالث للدولة فى عهد سلاطينها الأقوياء والوزراء المخلصين فأصبحت زراعة شجر التوت فى مدينة تستور على نهر مجرده عن طريق جالية أندلسية حيت صناعة الحرير فيها حيث قاموا بنسجه وتطويره واكتسب حريرها شهرة كبيرة سواء كان حريرا خالصا أو مخلوطا بالصوف(٢).

ونجد السلطان المستنصر يعطى اهتماما كبيرا لمصنع النسيج عندما أمر وزراءه ببناء مصانع للنسيج وخاصة الأنسجة الحريرية فى فندق الحلة سوق القماش وفندق الهناء وفندق باب السوقية(٣) وقام الصناع بصناعة ثياب رفيعة ملوكية* اشتهرت بها مدينة صفاقس(٤) كان يباع الثوب الواحد منها بمأتى

(١) مجهول: الاستبصار، ص١١٣، عبد العزيز العلوى: صناعة النسيج فى المغرب الوسيط، ص٥٩

(٢) عثمان الكعاك: الحضارة العربية، ص ٧٧

(٣) الدولاتلى: المرجع السابق، ص٦٨

* فإن هذا النوع من النسيج يستخرج من حيوان مائى ينمو على حجارة فى قاع البحر المتوسط على هيئة كمائم تشبه البصل بأعناق فى أعلاها، فتخرج هذه الكمائم وتنتشر فى الشمس، فتصنع منها الملابس راجع القلقشندى، صبح الأعشى، ج، ص

(٤) التجانى: المصدر السابق، ص

دينار بسبب ندرتها لذلك شدد السلاطين الأقوياء على عدم تصديرها للخارج[١] وبلغت صناعة المنسوجات الحفصية شهرة واسعة فى كل الأسواق الشرقية[٢] والأوربية[٣].

ونجد على العكس فى فترات نفوذ الوزراء حيث تدهورت صناعة المنسوجات وقل التصدير وانعدم الأمن والأمان وتأثر الصناع بسوء الأحوال السياسية فى ظل جو الفتن والثورات بين القوى المتنازعة من الوزراء والقبائل أو الوزراء ورجال السلطة وبالتالى انهارت صناعة المنسوجات حيث سيطر الوزراء ومساعديهم على الدكاكين والفنادق المخصصة للصناعة ورفعوا أسعار هذه الصناعات ونافسوا الصناع والحرفيين وأجبروهم أثناء فترات سيطرتهم على إخلاء وهجره أماكنهم من الدكاكين والفنادق[٤].

خلاصة القول نجد أن صناعة المنسوجات بجميع أنواعها كانت مزدهرة ومنتعشة ومتطورة أثناء فترات الحكام الأقوياء والوزراء المنفذين لأوامر سلطانهم دون تردد حيث الأمن والأمان وجميع وسائل الصناعات والحرف متطورة، على العكس من الوزراء المستبدين وانعدام الأمن والأمان وسيطرتهم على أموال الدولة، سعى الوزراء ومساعدوهم إلى جمع الأموال بشتى الطرق الشرعية والغير الشرعية.

---

(١) القلقشندى، صبح الاعشى،ج ٥، ص

(٢) العمرى: المصدر السابق، ص

(٣) Poncet: op.cit., P. p ٢٣٩

(٤) البر زلى:فتاوى البر زلى، ج ٢، ص، ج ١، ص ٤٧٧، محمد حسن: المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٧٧

صناعة الزيوت:

ازدهرت صناعة الزيوت فى بلاد افريقية فى العهد الحفصى وخاصة عهد السلاطين الأقوياء حيث استطاع السلطان أبو زكرياء يحيى الحفصى ووزرائه من العمل على أحياء زراعة الزيوت وأمر وزراءه بتشجيع المزارعين بالقرى المجاورة لقابس على الاهتمام بزراعته فبلغت الزراعة فى قابس أوجها وبالتالى ازدهرت معها صناعة عصر الزيت(١) على العكس من مدينة صفاقس التى كانت أهم مراكز عصر الزيتون فى أفريقية والأشهر فى إنتاجه وبلغ زيتها شهرته فى البلاد الأوربية فقد كانت تحمله السفن إلى هناك(٢).

ولكن فى فترات نفوذ الوزراء على مقاليد الحكم وضعف السلاطين انهارت صناعة الزيوت بصفاقس(٣) حيث قلة سيطرة السلطة المركزية على البلاد بسبب الخلافات والصراع على الحكم من الوزراء والسلاطين الضعاف وسيطر الأعراب على مناطق زراعة الزيوت واقتلعوا أشجاره وتدهورت صناعته بهذه المنطقة(٤) واختلفت نوعيه استخدام الزيوت حسب قوة وضعف السلطان الحفصى ومدى سيطرته على وزرائه أو مدى سيطرة الوزراء على أمور الدولة حيث قام سكان تونس فى القرن التاسع الهجرى الحادى عشر الميلادى باستعمال نوع من الزيت الرفيع يسمى الزيت المعصرى بينما ينتج الساحل زيتا

(١) التجاني: الرحلة، ص ١١٩، الإدريسى، نزهة المشتاق، ج ١، ص٢٧٩، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٨.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص ١١٦ – ١٧٧.

(٣) التجاني: الرحلة، ص ٦٨.

(٤) نفس المصدر السابق، ص٦٨.

اقل جوده يعرف بضرب الماء.[١]

وفى نهاية الدولة الحفصية انهارت صناعة الزيوت فى قابس وغيرها من المدن بسبب ضعف السلاطين والتنافس على الحكم وسيطرة الوزراء على أمور الحكم وأرهق العرب والسلطان أهلها بالإتاوات[٢] ومع قوة الدولة وسلطانها انتشرت معها معاصر الزيت، وخاصة فى مدينة بجاية[٣] ولكن قفصه كان زيتها جميل اللون وطيب المذاق وكانت جبال غريان بالقرب من طرابلس تنتج كميات كبيرة من زيت الزيتون والذى كان يصدر إلى الإسكندرية والمدن المجاورة لها[٤] وكانت صناعة زيت الزيتون قائمة فى مدينة سوسه[٥] وكذلك فى مدينة جربه[٦]، أو على العكس كانت عملية التدهور والانهيار لمصانع الزيتون فى هذه المدن، حيث سيطرة الوزراء على السلاطين ومقاليد الحكم وبالتالى لم يجد الصناع من يحميهم ويحمى صناعتهم من تلك الحروب والفتن التى قتل فيها أعداد كبيرة من الصناع وتدهور العمران قد أثر على الناحية

(١) الدولاتلى: المرجع السابق، ص٧٠ وعن طريق عصر الزيتون فى عهد الحفصى ومناطق زراعته، راجع: برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص٢٢٠ -٢٢١، ص٢٢٧ -٢٢٨، الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٧٩، لمياء محمد سالم: بعض ملامح أزمة افريقية الاقتصادية فى القرن الخامس للإسلام، مركز الجهاد الليبيين للدراسات التاريخية، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط١، ١٩٩٩، ص٢٦٧، التجاني: الرحلة، ص١٢٢.

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، ٤٦٥

(٣) الصفاقسى: نزهة النظار، ص٤٣

(٤) الوزان: المصدر السابق، ص ٤٧٩، ٥١٥

(٥) الصفاقسى: نزهة القطار، ص ٤٢

(٦) التجانى: المصدر السابق، ص١٢٢

الاقتصادية وخاصة الصناعة والزراعة[١].

صناعة الخمور:

انتشرت صناعة الخمور والنبيذ فى الدولة الحفصية، وكانت هناك مدن أفريقية تنتجه وخاصة التى تنتشر فيها زراعة العنب، ولكن كان القائمون على صناعتها وبيعها النصارى[٢] واليهود[٣] الذين استوطنوا عدة مدن فى افريقية منها بجاية وبونه وتونس وطرابلس وذلك لتحريم القرآن الكريم تصنعيها وبيعها، ولم يكتفوا بذلك بل جلبوا الخمور من أوروبا لبيعها فى تونس وبجايه[٤] وتفنن النصارى واليهود فى صناعة تلك الخمور على الرغم من السماح لهم وخاصة النصارى بتناول أطعمتهم وأشربتهم من شرب خمور وأكل لحم الخنزير وخاصة فى عهد السلاطين الضعاف ونفوذ الوزراء، ولكن فى عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المخلصين الذين حثوا المحتسبين والقضاة على التضييق عليهم والحد من انتشار صناعة الخمور، فقاموا بتكسير قدورهم التى يعتق فيها الخمر وصهرها وتحويلها إلى نحاس وذلك بسبب بيعهم الخمور للمسلمين بقابس، وتعرضوا لمضايقات كبيرة من الوزراء ومساعديهم من المحتسبين والقضاة فى عهد قوة الدولة.

اتسمت عملية تصنيع الخمور الجيدة وبكميات كبيرة وخاصة فى مدينة

---

(١) رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٥٧

(٢) ابن دينار: المصدر السابق، ص

(٣) Franz , Rosenthal: the jewish foundation of Islam. new York , ١٩٦٧ , p. ١٥٢

(٤) Mas latire , op cit , p. ٢١٢

جيجل[١] وكذلك صنع شراب العنب الطيب الطعم فى مدينة الحامة[٢] وكذلك صنعت الخمور الجيدة بمدينة نكاوس[٣] بسبب كثرة زراعة العنب بها[٤] وكذلك مدينة تونس[٥] وذلك فى غياب السلطة والوزراء وخاصة فى فترات نفوذ الوزراء فغابت مراقبتهم، فزادت عملية تصنيع الخمور وانتشرت عملية بيعة وتداوله بصورة كبيرة فى أنحاء أفريقية والمغرب الأقصى دون رادع أو مراقب، كل ذلك جعل رجال الدين يصدرون الفتاوى تحرم بيع الكروم للنصارى واليهود[٦].

(١) مدينة جيجل: مدينة قديمة بينها وبين ميلة من أرض المغرب مرحلة وبين جيجل وبيجاية خمسون ميلًا، وهى مدينة صغيرة على ضفة البحر والبحر يحيط بها ويضرب سورها وهى كثيرة التفاح والفواكه، راجع الحميري: المصدر السابق، صـ١٨٤-١٨٥.

(٢) مجهول: الاستبصار، ص١٢٨، ص١٥٧.

(٣) نكاوس أو نقاوس: وهى مدينة صغيرة كثيرة الأنهار والثمار والمزارع تكثر بيها أشجار الجوز والعنب ومنها يحمل كل هذا إلى بيجاية وإلى أكثر تلك البلاد، راجع الحميري: المصدر السابق، صـ٥٧٩.

(٤) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٤٢، ٤٥٧، زينب كريم: أهل الذمة فى الدولة الحفصية، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الزقازيق، ٢٠٠٥، ص١٥٢.

(٥) التجانى: الرحلة، ص٥

(٦) الونشريسى: المعيار، ج٦، ص ٦٩، ج ٥، ص ٢٥. البرزلي: جامع، ج٣، ص٢١٨ – ٢١٩، ٢٢٠- ٢٢٢، رشا سالم، المرجع السابق، ص ٢٥١،

obeikandl.com

الدباغة(*) وصناعة الجلود:

نتيجة لوفرة المواد الخام من الثروة الحيوانية بسبب انتشار المراعى الخضراء الواسعة بأفريقية، دخلت صناعة الجلود والدباغة ضمن أهم الصناعات فى الدولة الحفصية، حيث تتم تزويد الحذائين والسراجين وغيرهم بما يحتاجونه لصناعة الأحذية والجلود للكتب والسروج، واهتموا بصناعة النعال للجنود المحاربين وشيوخ الأعراب والسلاطين والعامة، والفائض من المواد الخام فأنه يصدر إلى المدن المجاورة(١) وبلغت مدينة القيروان شهرة كبيرة بدبغ جلود الأغنام والماعز ولجودتها ورقتها وليونة جلدها وصفت بالحرير وصنع السكان منه ثيابًا لهم، باعوها أيضًا للجنوب بكميات كبيرة(٢) وخصص السلاطين الحفصين الأقوياء ووزرائهم عدة أسواق ليتم فيها تهيئة الجلود، وأعدادها صناعيًا وتسويقها، مثل سوق السراجين وسوق الخرازين، أما مجلدوا الكتب فلعلهم كانوا أقرب إلى سوق الكتبيين، كما ذكر سوق للبلاغين

(*) الدباغة: من دبغ يدبغ دبغًا، صاحب العين؛ دبغته، دبغه، الاسم الدبغ والدباغ والمدبغة، والدباغة هى عملية تنظيف الجلود وتلينها بآله أو مادة ويتم نقع الجلد فى الماء مدة طويلة، ويكون النقع فى حوض يتكرر النقع عدة مرات، راجع أبن سيدة (أبى الحسن على بن إسماعيل النحوى اللغوى الأندلسى): المخصص، دار الفكر، (جـ - ت)، م١، ص ١٠٥، ابن الاثير (عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد)، اللباب فى تهذيب الأنساب، بيروت ١٩٨٠م، ج ١، ص ٤٠٨، إبراهيم حركات، النشاط الاقتصادى، ص ١١٢

(١) الدولاتلى، مدينة تونس، ص٦٩

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٢٦

قرب ربض باب الجديد[١].

وكانت لمدينة قفصه شهرة كبيرة بدبغ الجلود ونقشها وزخرفتها[٢] وبسبب رائحة دبغ الجلود الكريهة وأضرارها الصحية أمر السلاطين الأقوياء الحفصيون وزراءهم بنقل حوانيت صناعتها بعيدًا عن وسط المدينة، وكانت مسلخ الجلود تبنى على مخارج الأنهار فى بلاد المغرب[٣] ولكن مع تراجع قوة السلاطين وازدياد نفوذ الوزراء نجد انتصاب أسواق الدباغة داخل المدن وخاصة مدينة القيروان وذلك فى أواسط القرن الثامن الهجرى / الرابع عشر الميلادى مما أدى إلى التراجع العمرانى للمدينة وكثرت شكايات الناس[٤] ونجد أنه فى فترات نفوذ الوزراء وضعف السلاطين يحتكر القصابون تجار السلطة عملية الشراء والذبح دون غيرهم من الناس وكانت هذه العملية تتم أمام السلطة المركزية المشاركة لها، وبالغ السلطان الضعيف والوزراء المتحكمون ومعهم القصابون فى نهب البادية وأخذ الماشية وغيرها بثمن بخس أو سعر غير مرتفع[٥] بل وصلت هذه الظاهرة أيضًا إلى مدينة تونس حيث انتقلت دور الدباغة من خارج أسوار المدينة إلى داخلها، وزاد معها

(١) الدولاتلى: مدينة تونس، ص٦٩

(٢) الإدريسى، صفة المغرب، ص١٠٤

(٣) الونشريسى: المعيار، ج ٨، ص٢٨٠، ٤٤٦

(٤) البرزلي: فتاوى، ج، ص، حيث نجد أن شكايات الناس كانت تذهب هباء دون تنفيذ بسبب ارتباط الدباغ وعلاقته الشديدة بالوزراء وغيرهم من السلطة، راجع البرزلي: ج، ص، محمد حسن، المدينة والبادية، ج ١، ص ٤٨٦.

(٥) البرزلى: فتاوى،ج ٥، ١٨ – ١٩م، ج١، ص٤٨٦، محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٤٨٥ – ٤٨٦.

الخراب فى الداخل، وكثرت القاذورات حتى تصدى لها أحد المحتسبين ونقل الغسالة خارج السور، وحاولوا الرجوع مرة آخرى ولكن لم يستطيعوا دخول المدينة مرة آخرى[١] ومع ضعف السلاطين واستفحال نفوذ الوزراء افتقرت تلك الصنعة والصناعات القائمة عليها بسبب ثقل الجباية المفروضة عليهم، وأصابهم الفقر[٢] وتدهورت معهم الحرف القائمة عليها مثل البلاغين.

الوزراء والصباغة:

الصباغة هى المرحلة الأخيرة لتهيئة المنسوجات وتعتمد على مواد نباتيه وأخرى حيوانيه وأيضا مواد كيميائيه[٣] وعرف سكان أفريقيه هذه المواد واستخدموها فى صباغة المنسوجات[٤] التى اعتمدت أيضًا على الحطب كوقود، فجعل الصباغون أماكن تواجدهم ومحلاتهم بالقرب من مخازن الحطب بباب الفلاق بمدينة تونس[٥] وفى عهد قوة الدولة وسيطرة السلاطين على مقاليد الحكم، انتعشت صناعة صباغة المنسوجات حيث سيطر الوزراء

(١) البرزلي: فتاوى، ج، ص.

(٢) الوزان، وصف أفريقيا، ص ٤٦٤، ٥١٥.

(٣) محمد حسن: المدينة والبادية،ج ١، ص٤٨١، عن المواد المستعملة فى الصباغة راجع السيد طه أبو سدير، الحرف والصناعات، فى مصر الإسلامية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩١، ص٤٢، محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢ ص ٤٨٢، الونشريسى، المعيار، ج٦، ص٣١٤، عبد السلام بن سوده: حول أسماء الحرف الصناعية المعروفة فى مدينة فاس، مجلة دعوة الحق، عدد ٢٢١، السنة ١٤، يناير ١٩٧١، ص ١١٧. Mas latrie: les relations p٢١٧

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص ١٠٤.

(٥) ابن القنفذ: الفارسية، ص، التجاني: الرحلة، ص ١٤٢

ومعاونوهم على عملية الصباغة ومنعوا غشها، وبالتالى ظهرت معها مدن فى إتقان الصناع صباغة المنسوجات مثل مدينة توزر(١) و مدينة الحمامات(٢) ومدينة المرسى* التى كثر بها دور الصباغة حيث مياه الأنهار الجارية(٣) حاجة هذه الصناعة إلى مياه دائمة(٤) وحتى لا ينزعج السكان المجاورون للروائح الكريهة من عمليات الصباغة والتى كانت بعيده عن السكان والأسواق(٥) على العكس من ذلك فترات ضعف السلطة المركزية المتمثلة فى السلطان وقوة نفوذ الوزراء وسيطرتهم على مقاليد الحكم، وغياب دور المحتسب عن الأسواق والرقابة على دور الصباغة فينتشر الغش والسرقة(٦) بالإضافة إلى تقلبات السوق العالمى التى احتكرها فئات محدودة من اليهود والتجار الأوروبيين(٧) فكثرت الخلافات والادعاءات بين الصباغين وأصحاب الأثواب بسبب تميز أثوابهم وإعطائهم أثوابًا آخرى(٨) فى ظل غياب الرقابة تدهورت معها هذه الصناعة.

(١) النجاتى: الرحلة، ص ١٥٨

(٢) الحمامات:

(*) المرسى:

(٣) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٤ – ٤٥٥

(٤) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٩

(٥) برنشفيك: تاريخ إفريقيا، ح ٢، ص ٢٠٩

(٦) البرزلي: فتاوى، ج ٣، ص٢٢٤، الشيرزى: نهاية الرتبة، ص٧٢

(٧) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص ٤٨٣

(٨) الشيرزى: نهاية الرتبة، ص ٧٢

الوزراء وصناعة السفن:

كان للأحداث السياسية المغربية فى البحر المتوسط والموقع الجغرافى عامة وسواحل تونس خاصة فى العهد الحفصى دور هام لظهور الأسطول الحربى البحرى[١] كما كان لاتساع وانكماش الدولة، ومساعدتها إلى غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الأندلس ضد النصارى أثره القاطع فى عدد سفن الأسطول[٢] لذلك اهتم سلاطين الدولة الحفصية الأقوياء ومساعدهم وزرائهم فى إنشاء دور الصناعة فى المدن القريبة من الغابات مثل بجايه، وكان لقائد الأسطول أو صاحب البحر شخصية هامة عند السلطان الحفصى والجهاز المعاون له من الوزراء[٣]، وذلك فى فترات قوة ونفوذ السلطة الحاكمة المسيطرة على جماح الوزراء الحفصين وجعلهم موضع تنفيذ لأوامر سلطانهم[٤].

ويقول ابن خلدون فى رتبة قائد البحر فى أفريقية الحفصية مثل باقى مراتب الدولة وخططها فى ملك المغرب وأفريقية ومرؤوسه يخضع إلى وزير الحرب وتحت حكمه فى كثير من الأحداث[٥] وكانت الدولة الحفصية فى حاجة مستمرة وماسة وملحة للأسطول، فأنشأوا كثير من السفن من أجل

(١) هنرى برنشفيك: المرجع السابق، ص ٩٤

(٢) عز الدين عمر موسى: دراسات، ص ٤٧ – ٤٨، رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٤٦

(٣) ابن خلدون: العبر، ص٦، ج ١٢، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص

(٤) رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٤٧

(٥) ابن خلدون: المقدمة، ج٢، ص ٦٥٤-٦٥٥

الدفاع عن السواحل الحفصية والحروب الخارجية[١].

ولكننا نجد أحيانًا أن وزير الحرب هو نفسه وزير البحر وكان هو قائدًا للأسطول الحفصى عندما يسيطر الوزير على مقاليد الحكم حيث سعى الوزراء إلى جمع الأموال الوفيرة وذلك من جباية السفن[٢] على العكس من فترات قوة السلاطين فكان قواد الأسطول هم المنفذين للأوامر السلاطين مثلما فعل السلطان أبو فارس عبد العزيز عندما أرسل الأسطول بقيادة قائد الأسطول رضوان وأمره بفتح جزيرة مالطة ولا يتجاوز فى حربه لها ثلاثة أيام وإذا لم يستطع فتحها يرحل عنها[٣]

وكذلك استخدام الأسطول الحفصى متحالفًا مع المرينين فى عهد السلطان أبى بكر الحفصى، بقيادة زيد بن فرحون[٤] الذى ذاع صيته فى البحر، فطلبه

(١) الغنيمى: موسوعة المغرب، م ٣، ج٥، ص ٢٨٦، برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص٩٥

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص، صالح فياض: فنون القتال عند المرابطين والموحدين والحفصين، مجلة المؤرخ العربى، الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب، بغداد، العدد ٣، ١٩٨٨م، ص ٢٤٦

(٣) الزركشى: المصدر السابق، ص١٢٧

(٤) ابن خلدون: العبر، ج ٧، ج١٣، ص ٢٦١، السلاوى: الاستقصا، ج٣، ص١٣٥، عبد الهادى التازى: التاريخ الدبلوماسى، ج٧، ص٨٣، الحريرى، تاريخ المغرب والأندلس، ص١١٥، المبروك غنية الأسطى: حركة الجهاد، على مدى قرن فى ظل الصلات بين بنى الأحمر بغرناطة وبنى المرين بفاس، ٦٨٤هـ-٧٧٧ / ١٢٧٥-١٣٧٥م، منشورات مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية، طرابلس، ١٩٩٥، ص ١٢٩، محمد شبانه: يوسف الأول، ص ١٣٣، صالح فياض: المرجع السابق، ص ٢٤٥، ضياء باشا: الأندلس الذاهبة، ج، ص ١٧٨ – ١٧٩، عبد الفتاح مقلد: موسوعة المغرب، م ٣، ج ٥، ص ٢٣٨،

السلطان أبو الحسن المرينى فى أحدى المعارك الحربية ضد الجيش النصرانى فى أثناء الأخذ بثأر ابنه (أبى مالك) المقتول فى حروب معهم عندما كان واليًا من قبل ابنه على أحد الثغور الأندلسية[١].

وتعددت مراكز الأساطيل الحفصية وزاد اهتمام الدولة بهذه المراكز فى عهد السلاطين الأقوياء وكانت للمهدية أثر كبير فى تقوية هذا الأسطول الحفصى وتنميته، بسبب موقعها البحرى ونشاطها منذ زمن البيديين، وكذلك كانت بجايه وعنابه وغيرها من المراكز الهامة لقيام صناعة الأساطيل[٢] والانطلاق منها ضد بعض الموانى الغربية من أجل استرداد أو غزو الجزائر فى

(١) العربى العمروى: الزواج السياسى (توأمه فاس والقيروان) مجلة المغرب والأندلس، عدد ٣، الرباط، ١٩٦٥، ص ٤١ – ٤٣، ابن الخطيب: كناسة الدكان، ص ١٦٣، ابن خلدون: العبر، مج ٧، ج ١٣، ص، السلاوى: الاستقصا، ج ٣، ص ٨٣٥، المقريزى: السلوك، ج ٢، ج ٣، ص ٦٧٠، شبانة: يوسف الأول، ص ١٣٢، عبد الهادى التازى: التاريخ الدبلوماسى، ج٧، ص ٨٢ –٨٣ / محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ج٧، ص ١٢٧، سامية مسعد: الجهاد الإسلامى، ص ١٢٦، برنشفيك: تاريخ أفريقية، ج٢، ص ٩٥، ابن الخطيب: كناسة الدكان بعد انتقال السكان، حول العلاقات السياسية بين مملكتى غرناطة والمغرب فى القرن الثامن الهجري، تحقيق محمد كمال شبانة، مراجعة حسن محمود، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة د.ت، سامية مصطفى مسعد: الجهاد الإسلامى فى الأندلس ودور المجاهدين من علماء ومتصوفة، الزهراء كمبيوتر سنتر، القاهرة، ٢٠٠٣، ص١٢٦. المقريري: تقى الدين أبو العباس أحمد، ابن على المقريزي: السلوك لمعرفة دول الملوك، صححه ووضع حواشيه: محمد مصطفى زيادة، لجنة التأليف والترجمة والنشر، ١٩٥٦، ق٢، جـ٣، ص٦٧٠.

(٢) صالح فياض: المرجع السابق، ص ٢٤٥

سنة ١٢٧٦م[١] فى عهد السلطان أبى عبد الله محمد المستنصر[٢] ووزرائه منهم ابن أبى الحسين قوى الشكيمة عالى الهمة شديد المراقبة والحزم[٣] وفى عهده قوة الدولة ووزرائها كان الجهاد فى الأندلس لا يفتر ولا ينضب وكانت الأساطيل الإسلامية دائمة الإقلاع من أجل الجهاد[٤] حيث أرسل السلطان أبو زكريا الحفصى الأسطول لتقديم المساعدات إلى المسلمين فى الأندلس[٥] ولكن مع ضعف السلاطين وسيطرة الوزراء ضعفت وتخلفت الأساطيل الحفصية فى ظل تدهور أوضاع الدولة على جميع النواحى[٦] وخاصة بعد وفاة السلطان أبى عمرو عثمان (٨٩٣هـ / ١٤٨٨م) ولم تعد السلطة تمتلك أى نفوذ على الأقاليم الداخلية بالإضافة إلى عدم توفير الأمن على سواحلها وموانيها بسبب ضعف الأسطول[٧].

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٣، ص، برنشفيك: المرجع السابق، ج٢، ص ٩٥

(٢) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١١٧

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٢، ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٢

(٤) ابن أبى زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، الرباط، ١٩٧٢، ص ٣١٣ – ٣٢١، السلاوى، الأستقصا، ج ٣، ص ١٣٤ – ١٣٧،

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج، ص ٦٠٤، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ٦٢، ابن الشماع: المصدر السابق، ص ٥٩.

(٦) برنشفيك: المرجع السابق، ج ٢، ص٩٥.

(٧) عبد الناصر جبار، المرجع السابق، ص ٢٣٣، مريم محمد عبد الله جبوده: التجارة فى بلاد أفريقية وطرابلس الغرب خلال العهدين الموحدة والحفصى، رسالة دكتوراه، آداب الزقازيق ٢٠٠٨م، ص ١٤٦.

الوزراء والصاغة:

عرفت أفريقية الحفصية فن الصاغة وصناعة الحلي، وعملت المصادر على تطور هذه الصناعة بأفريقية فى حقبة ظل فيها الكثير من المدن الأوروبية مثل برشلونة تجهل هذه الحرفة(١) وعمل اليهود بهذه الحرفة(٢) وتواجدوا بكثرة فى سوق الصاغة، وحتى فى ضرب النقود(٣) وكانت حرفة الصاغة من الحرف الشاقة لأنها تتطلب العمل والوقوف لفترات طويلة أمام النار(٤) على العكس من المسلمين الدين كانوا يرفضون مثل هذه الحرفة(٥) ونجد أنه فى فترات سيطرة الوزراء وضعف السلاطين الحفصين عمل اليهود على غشها وتزويرها، حيث أقبل الصاغة اليهود على خلط الذهب بالفضة أو تبديل الذهب بالفضة عند صهره(٦) حيث غاب المجلس الوزراء عن رقابة الأسواق

(١) الأبى، الكامل، ج ٢، ص ١٣٢، البرزلي: فتاوى، ج، ص.

(٢) محمد سويسى: أنحاط العمران البشرى، ص ٩٧؛ محمد حجى: الزاوية الدلائية ودورها الدينى والعلمى والسياسى، المطبعة الوطنية، الرباط، المغرب، ١٩٦٤م، ص ١٢١

(٣) برنشفيك: تاريخ أفريقيا، ج ١، ص ٤٤٢.

(٤) كان يقبل اليهود على المهن الصعبة والحقيرة والشاقة، عن أهم حرف اليهود راجع جواتبان: دراسات فى التاريخ الإسلامى والنظم الإسلامية، تعريب عبد الله القوصى، وكالة المطبوعات، ج ١١، الكويت، ١٩٨٠م، ص ١٦٨ – ١٦٩ / ابن الخطيب (لسان الدين): مثلى الطريقة فى ذم الوثيقة، دراسات ووثائق. تحقيق عبد المجيد التركى، المؤسسة العربية لكتاب بالجزائر، ١٩٨٧م، ص ٩٢.

(٥) روجيه لوتورنو: فاس فى عصر بنى مرين، ترجمة نقولا زيادة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٣٩.

(٦) الونشريسي: المعيار، ج ٥، ص ٨٠، ابن يوسف: الدوحة المشتبكة، ص ٨٢، أبو شامة، المرجع السابق، ص ٣٧٠، مارمول كربخال: المصدر السابق، ج٣، ص ٢٨

على العكس من فترات السلطان الأقوياء حيث التزم اليهود بحرفهم وعاداتهم وملابسهم(١).

كما تعددت صناعات آخرى مثل صناعة الورق والأحبار(٢) وصناعة الشمع(٣) وصناعة المنجنيق الذى صنع بدار الصناعة بتونس ورمى به ثلاثة أحجار فى تونس فى شهر صفر عام ٧٠٩هـ / ١٣١٠م(٤) فى عهد السلطان أبى عصيدة ووزيره ابن أزرقان(٥) وقامت صناعة المجوهرات والحلى(٦) وصناعة الخزف والزجاج(٧).

ومن المؤكد أن هذه الصناعات قد تدهورت فى فترات نفوذ الوزراء وسيطرتهم على البلاد، وساءت أحوال البلاد فقامت الثورات فى البلاد(٨) ونشبت الخلافات بين الصناع وأرباب الأموال فى جميع أنحاء البلاد(٩).

---

(١) برنشفيك: تاريخ أفريقيا، ج١، ص ٤٣٧

(٢) حسن حسنى عبد الوهاب، ورقات، ج ٢، ص ١٦٤، الغبريني: (أبو العباس أحمد بن محمد الغبريني) عنوان الدراية فيمن عرف فى المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، (د.ت)، ص ١٢٤ – ١٢٥

(٣) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٢٦

(٤) الزركشى: المصدر السابق، ص ٥٨

(٥) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص ٧١٠ – ٧١١، الزركشى، المصدر السابق، ص ٥٠ – ٥١، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٧

(٦) منى سيد عبد العزيز، المرجع السابق، ص ١١٤

(٧) الوزان: وصف أفريقيا، ص ٤٥٦

(٨) رشا سالم: المرجع السابق، ص ٢٥٦

(٩) الونشريسى: المعيار، ج٨، ص ٢٢١

وخلاصة القول أن الصناعات ازدهرت فى عهد السلاطين الأقوياء، حيث كان الوزراء وزراء تنفيذ، وكذلك سيطرت السلطة على البلاد وتوفير الأمن والقضاء على الفتن والثورات، فعم الازدهار جميع الصناعات، على العكس من سيطرة الوزراء على السلاطين والانفراد بالقرارات، وكان شغلهم الشاغل جمع الأموال بشتى الطرق فأهملوا البلاد وانحدرت معها الصناعات، وانعدم الأمن فى الطرقات وانتشار الخوف والخراب الذى دب فى جميع البلاد، وانتشر الثورات التى أثرت على اقتصاد الدولة الحفصية.

دور الوزارة فى التجارة:

شهدت بلاد أفريقية نشاطًا تجاريًا[١] ملحوظا أثناء الحكم الحفصى بسبب موقعها الجغرافى المتميز على سواحل البحر المتوسط، مما أتاح لها السيطرة على بعض الطرق التجارية لأنها تقع بين الساحل والصحراء، ولا تنفصل سواحلها عن شاطئ البحر، ولذلك كانت الموانى الأفريقية نقطة التقاء بين المشرق والمغرب وبين التجارة والمتوسطية وقوافل التجارة الصحراوية وتعتبر التجارة بشقيها الداخلية والخارجية إحدى الركائز الأساسية للنمو الاقتصادى وازدهار الحياة الإجتماعية فى أفريقية، وهى تقوم على فائض الإنتاج سواء زراعى أو صناعي.

(١) عرف العرب التجارة قبل الإسلام ثم استمر المسلمون فى العمل بالتجارة فى ظل الدين الإسلامى واتساع الدولة الإسلامية، فعظمت التجارة وازدهرت، راجع جرجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامي، مطبعة الهلال، ط٤، القاهرة ١٩٢٧، جـ٥، ص٤٠-٤١، أبوزيد شلبي: تاريخ الحضارة والفكر الإسلامي، مكتبة وهبة، ط٦، القاهرة ١٩٦٤، ص٣٠٩-٣١١

التجارة الداخلية:

لقد أعطى السلاطين الحفصيون الأقوياء ووزرائهم اهتمامًا كبيرًا بالتجارة ولذلك عملوا على تأمين الطرق التجارية بين المدن وبعضها البعض وخاصة الطريق الساحلي(٢) وظل الطريق منتعشًا اقتصاديًا خلال فترة الحكم الحفصى وهذا ما يصوره لنا ابن بطوطة خلال سنتى ٥١هـ-٧٢٦هـ/١٣٢٥م(٣) فى عهد السلطان أبى يحيى ابن بكر الحفصي(٤) مشيرًا إلى ما بذلته السلطنة ووزرائها من جهود من أجل زرع حياة الأمن والاستقرار فى هذا الطريق(٥) ولعبت الأسواق* دورًا هامًا فى جميع المدائن الاسلامية كمركز للحياة الاقتصادية لأنها تحتوى على النشاط الصناعى والتجارى مما ينعكس على الحياة الإجتماعية للمجتمع الحفصي(٦).

---

(٢) الطريق الساحلي: يبدأ هذا الطريق من طرابلس مشرقًا حتى يستمر غربًا بعدة مدن صغيرة على الساحل مثل "جنزور، زواره، جرجيس، قابس" حتى جربة، راجع: المراكشي: المعجب فى تلخيص أخبار المغرب، ص٢٨٣، الإدريسي: نزهة المشتاق، ص٢٧٩-٢٨٠، عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص٣٠٥، راجع صالح بيعزق: المرجع السابق، جـ١، ص١٦٠

(٣) ابن بطوطة: الرحلة، جـ٢،

(٤) ابن خلدون: العبر، مجـ٦، جـ١٢، ص الزركشي، تاريخ الدولتين، ص٦٦-٦٧، ابن الشماع: الأدلة،

(٥) ابن بطوطة: الرحلة، جـ٢، ص

* تنوعت الأسواق الحفصية ما بين أسواق الاسبوعية فى أيام معينة من الأسبوع وكانت هذه الأسواق ذات أهمية كبيرة فى الاقتصاد الحفصي، راجع: برنشفيك، المرجع السابق، جـ٢، ص٤٥، الوزان: المصدر السابق، ص، المقديسي: أحسن التقاسيم، مكتبة مدبولى – القاهرة، ١٩٩١م ص٢٢٥

(٦) منى سيد عبدالعزيز: المرجع السابق، ص١١٧

واهتم السلاطين الحفصيون الأوائل الأقوياء ووزرائهم بتنشيط الحياة الاقتصادية داخل الأسواق فى المدن الأفريقية، وكانت تونس هى صاحبة الاهتمام الأكبر من قبل السلاطين والوزراء باعتبارها عاصمة الدولة ومركزًا للحياة الاقتصادية وكانت تعقد فى تونس ثلاثة أسواق فى أماكن مختلفة كل أسبوع وكان البدو يتوافدون عليها حاملين معهم بضائع البادية والريف(١) وانتشرت هذه الأسواق وازدهرت فى عصر السلاطين الأقوياء ووزرائهم حيث وجدت أسواق أسبوعية فى جزيرة جربه(٢) واقليم طرابلس(٣) وسوق صفاقس يوم الجمعة(٤) وكانت قسطنطينة(٥) وكذلك بجايه كان بها سوق الخميس والاثنين(٦).

وقد راعى السلاطين الأقوياء ووزرائهم ومساعدوهم عملية تنظيم الأسواق مما يوفر سهولة التموين للجهة واحترام متطلبات حفظ الصحة والقطاع المعمارى بالمدينة من جهة أخرى وبالتالى انتظمت الأسواق الخاصة بالمواد الاستهلاكية العادية وبيع الأقمشة أو الثياب الجاهزة ومواد الترف

(١) محمد حسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٥١٠

(٢) الوزان: المصدر السابق

(٣) التجاني: الرحلة ص٢١٥-٢١٦

(٤) الصفاقسي: نزهة الأنظار، ص٣٢

(٥) كان يقصدها كثير من العرب والبربر بماشيتهم بشراء ما يلزم من احتياجات وبيع الزائد عنهم، راجع الوزان، المصدر السابق، ص٣٦٧-٤٧٦

(٦) مريم محمد عبدالله جبوده: التجارة فى بلاد أفريقية وطرابلس الغرب خلال العهد بين الموحدى والحفصي، رسالة دكتوراه آدب الزقازيق من ٢٠٠٨، ص١٧٨

قرب السماط الأعظم الواصل إلى جامع البلد[٧] واستمر اهتمام السلاطين العظماء ووزرائهم المخلصين بالأسواق والتجارة الداخلية فأمر السلطان ابو يحيى اللحيانى وزراءه عام ١٧١١هـ/١٣١١م بتسهيل عملية إنشاء دكاكين العطارين حتى وصل عددهم إلى ٧٠٠حانوت وانتعشت التجارة فى عهد هذا السلطان ووزرائه[٨] ولكن فى نهاية عصره دخل به العمر واضطربت أحوال البلاد وانتشرت الفتن والثورات وسيطر الأعراب على الثروات وكذلك الوزراء على السلطان فلم يجد طريقة إلا الهروب بعد أن جمع الأموال وباع جميع الذخائر التى كانت فى القصبة، وجمع قناطير الذهب التى تجاوزت العشرين وحولتين[٩] وبالتالى تدهورت معه حركة التجارة الداخلية بالتأكيد لانعدام الأمن والصراع على الحكم وسيطرة الوزراء على مقاليد السلطة بسبب فشل السلطان السياسي[١٠] وظلت هذه المدن وأسواقها وحركة التجارة بها مزدهرة زراعيًا وتجاريًا وصناعيًا فى عهد السلاطين الأقوياء إلا أنه عندما انحطت الدولة وتدهورت فى عهد نفوذ الوزراء حيث الحروب والثورات فتخربت المدن وانهارت معها الزراعة والتجارة والصناعة، حيث سيطر الأعراب على الأراضى وجميع ما فيها وعاثوا فيها الخراب، وكانت هذه الأسواق تختص بنوع معين من السلع فهناك أسواق للغزل وأخرى للزيت

(٧) محمد سويسي: أنماط العمران، ص٨٩، مرجع: مريم جبوده، المرجع السابق، ص١٧٨

(٨) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص١٢٠، برنشفيك، المرجع السابق، جـ١، ص١٦٠

(٩) الزركشي: المصدر السابق، ص٦٣-٦٤

(١٠) برنشفيك: المرجع السابق، جـ١، ص١٦٠

وأخرى للدقيق[١] وكان لا يسمح ببيع أى سلعة خارج سوقها، حتى لا يصاب تجار الحوانيت داخل الأسواق بالخسارة لكساد سلعهم[٢] وعرفت الأسواق الحفصية نظام الوسطاء الذين عرفوا باسم الدلالين[٣] وكانوا يعملون سماسرة[٤] ولم تكن هذه الحرفة قاصرة على الرجال فقط بل مارستها النساء، وتمكن السلاطين الأقوياء ووزرائهم فى عهد قوة الدولة من السيطرة على أسعار السلع داخل الأسواق، فكانت الأسعار رخيصة بوجه عام، وبلغت مدها فى أيام الرخاء، حيث يفيض الإنتاج عن حاجة المستهلكين بسبب كثرة الإنتاج ووفرته، فكان متوسط سعر القفيز من القمح يساوى خمسين درهمًا، وكان الشعير أقل من ذلك، وكانت أسعار اللحوم رخيصة جدًا، حيث بلغ سعر لحم الضان الدرهم رطل الواحد، وأنواع اللحوم الأخرى أقل من ذلك بكثير ودرهمين ثمن للدجاجة[٥] وهذا يدل على مدى سيطرة السلاطين الحفصيين على مقاليد الأمور وكان الوزراء مجرد وزراء تنفيذ وكان السلطان أبو عمرو عثمان خير دليل على ذلك حيث قبض على زمام

(١) الونشريسي: المعيار، جـ١٠، ص٢٤٢، كمال أبو مصطفى: جوانب من حياة المغرب، ص٧٠

(٢) الونشريسي: المعيار، جـ٩، ص٧٢، رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٦

(٣) الدلال: بفتح الدال واللام مشددتين والجمع ولا لون وهو الذى يدلل عن السلعة ويزينها ليغرى المشترين وإغراء البائع فكان دور الوسيط بين البائع والمشترى وكان له مكسب من إتمام عملية البيع راجع محمد عمارة: قاموس المصطلحات الاقتصادية فى الحضارة الاسلامية، دار الشروق، جـ١١، القاهرة ١٩٩٣م

(٤) السمسار: كان مهمة السمسار البيع لمن يريد البيع ويشترى لمن يريد الشراء راجع ابن رحال: كشف الصناع، ص١٠١

(٥) العمري: وصف أفريقية، ص٦، القلقشندي: صبح الأغشى، جـ٥، ص١١٥

الدولة بيد قوية، وصرف شئونها بحكمة فازدهرت معها التجارة الداخلية، وبلغت مداها[٦] مثلما فعل من قبله السلطان الحفصى أبو زكرياء الحفصى حيث بلغ الرخاء أشدة وانتعشت التجارة ومعها انتعشت خزانة الدولة بالأموال[٧]، وفى عهد قوة الدولة والوزراء المنفذين لسياسة سلاطينهم، ووعى تنظيم هذه الأسواق[٨] بسبب قوة المحتسب[٩] لأنه هو المنظم الحقيقى للحياة الإقتصادية عامة فى المدينة والحياة التجارية والصناعية على وجه الخصوص[٢] ولكن هذه الوظيفة تطورت فى أواخر العصر الوسيط، حيث تحول النفوذ فى مسائل

(٦) يوسف فهمى الجزايرلي: المرجع السابق، ص٣٣٤.

(٧) الجيلاني: تاريخ الجزائر العام، جـ٢، ص١٠.

(٨) محمد سويسي: المرجع السابق، ص٨٩.

(٩) المحتسب: كان المحتسب لابد أن يكون عارفًا بأحكام الشرع ليدعم ما يأمر به أو ينه عنه، وكان المحتسب فى بلاد المغرب يتولى وظيفته وولايته من قبل السلطان فكان ليفعل فى النزاعات بين أصحاب المهن والحرف والصناعات، وتحديد الاسعار ومراقبة المبيعات ويحمى المستهلكين من الغش والتدليس، راجع: الشبرزي: نهاية الرتبة، ص٦، محمود إسماعيل: الإقطاع فى العالم الاسلامى ومن منتصف القرن الخامس إلى أوائل القرن العاشر الهجرى بين الجدل النظرى والواقع التاريخى ضمن حوليات كلية الآداب الصادرة عن مجلس النشر العلمي: الحولية الحادية عشر، الرسالة التاسعة والستون، جامعة الكويت، ١٩٨٩-١٩٩٠، ص١٧، محمد المنوني: خطة الحياة فى المغرب، مجلة المناهل تصدرها وزارة الدولة المكلفة بالشئون الثقافية، العدد ١٤، السنة السادسة، المغرب، ١٩٧٩، ص٢١٠، الحسن السائح، على هامش القرويين، ص٩٩، المنوني: أبحاث مختارة: منشورات وزارة الشئون الثقافية، المغرب، فبراير ٢٠٠٠م، ص١٨٤، إبراهيم القادرى بوتشيش: الأسواق فى المغرب والأندلس خلال العصر الوسيط تنظيماتها ومعطياتها الإجتماعية (تراث الغرب الإسلامي)، دار الطليعة، بيروت، ٢٠٠٢م، ص١٠١.

(١) مريم جبودة: المرجع السابق، ص١٨٤.

الحسبة إلى قاضى الجماعة، وهذا ما فعله ابن عرفه سنة ٧٦٠هـ / ١٣٥٨م[١] فى عهد السلطان أبى إسحاق أبى يحيى أبى بكر سنة ٧٥١هـ - ١٣٥٠م / ٧٧٠ هـ - ١٣١٩م[٢] واقتصر دور المحتسب على ردع الحرفيين عند غشهم، أو عدم بيع البضاعة للناس وحل المنازعات[٣] وظلت خطة الحسبة والمحتسب فى تدهور وانحطاط[٤] فى فترات ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء وتدهورت معها أحوال الأسواق، فعمت الفوضى ووقت المشاكل على السلع بين الدلال والتاجر[٥]، وفى غياب السلطان القوى وأمام نفوذ الوزراء غاب سلطة المحتسب ووقعت خلافات كثيرة بين أصحاب الحوانيت والدلالين، حيث أراد أصحاب الحوانيت منع الدلالين من البيع فى النهار ووسطه، معيين أن الدلالين يسببون لهم أضرارًا، لأن المشترى يقلب السلعة فى حوانيتهم بهدف الشراء، فيرى أن سلعة المنادى أقل ثمنًا من الحوانيت فيشترى من الدلال بدلًا من الحوانيت[٦] وظهرت مشكلات أصحاب السلع مع السماسرة فكان ياخذ السلعة ويدعى تلقاها منه[٧] وأثناء فترات سيطرة الوزراء ونفوذهم كسدت التجارة الداخلية بسبب الحروب والحصارات الكثيرة التى تعرضت لها

(٢) محمد محسن: المدينة والبادية، جـ١، ص٥١١.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج٦، مج١٢، ص، الزركشي: المصدر السابق، ص، ابن القنفذ: الفارسية، ص.

(٤) محمد حسن: المدينة والبادية، ج١، ص٥١٣.

(٥) المرجع السابق، نفس الجزء والصفة.

(٦) الونشريسي: المعيار، جـ٥، ص٢٠٢.

(٧) الونشريسي: المعيار، جـ٥، ص١٩٧.

(٨) المصدر السابق، ج٢، ص٣١٨، ٣١١، ج٩، ص١٢١.

المدن[١] حيث أدت هذه القلاقل والفتن إلى فساد وتوقف حركة الطرق التجارية[٢] وكذلك كان للقبائل العربية دورها فى تدهور التجارة[٣] بسبب تدهور الزراعة والصناعة، كما قطع الأعراب الكثير من الطرق التجارية حيث كانوا قوافل التجارة ويقطعون الطرق على قصور الصحراء[٤] ومع السلاطين ونفوذ الوزراء كان للطبيعة دورها أيضًا فى كساد حركة التجارة والأسواق، حيث دمرت السيول والثلوج والمجاعات والطاعون[٥] وأوبئة التجارة والطرق التجارية والأسواق والعاملين فى هذا المجال[٦] ففسدت الأخلاق وأصبح التعامل مع الجزارين صعبًا[٧] وقاموا ببيع اللحم فى البادية جزافًا، ولا يعرفون كثيرًا من الأحيان معرفة مقدار ما يبيعونه[٨] وهو ما يعرف بالبيع الجزاف[٩] وتزايد غش

(١) رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٦٤.

(٢) الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٥٩، ٤٦٠، ٤٥٩.

(٣) ابن خلدون: العبر، مج، مج، ص.

(٤) مصطفى أبو ضيف: أثر العرب فى تاريخ المغرب، ص٢٢٦.

(٥) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص٦٣٦، ٤٣٧، ص٢٠٥، إبراهيم القادري: الإسلام السري: ص١٨٧، سامية سعد، الحرب والطبيعة، ص٢٨.

Lopez reports. Medieval trade in the mediterreinean world, oxford university, Press, London, ١٩٩٥, P. ٥٢.

(٦) إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص١٨٧.

(٧) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٢٣٠.

(٨) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٨٩، ٩٦.

(٩) البيع الجزاف: هو البيع بالنظر وليس بالوزن والمكيال ولقد نهى الرسول (ﷺ) عن بيع الجزاف، راجع ابن رشيد المقيد: بداية المجتهد ونهاية المقصتر، تعليق ومراجعة عبد الحليم محمد عبد الحليم، وارد الكتب الإسلامية، ص٢١، ١٩٨٣م، ج٢، ص١٧٧.

التجار للبضائع والسلع[١] ولا يعرف المشترى عيوب السلعة إلى بعد شرائها[٢] وارتفعت الأسعار نتيجة للاحتكار[٣] وهذا يدل على ما وصلت إليه الأوضاع الاقتصادية من انهيار[٤] وكان لكثرة الرسوم والضرائب والمغارم فى فترة نفوذ الوزراء التى كان شغلهم الشاغل جمع الأموال والذخائر بشتى الطرق، على الكساء التجارى خاصة والاقتصادى الحفصى عامة، وكان لتحديد نسب الرسوم والضرائب، فقدرت الدولة جميع التغيرات التى يمكن أن تطرأ على الأسعار وقيمة العملة ذهبًا وفضة بالإضافة إلى احتياجها تمويل الحروب والصراعات، ومظاهر الملك، كما أن ارتفاع الأسعار يستفيد منه السلطة الحاكمة المتمثلة فى السلطان الضعيف والوزير المستبد وذوى النفوذ وكبار التجار، بينما يقع العبء على كاهل العامة من ذوى الدخل المحدود[٥] وفى القرن الثامن الهجرى فى فترات نفوذ الوزراء اشتكى الناس من ضرر اليهود وكثرت تعاملهم بالنقود والحلى المغشوشة وبيعها دون أن يكون عليها طابع السكة[٦] حتى يتهربوا من حقوق دار السكة وسميت هذه النقود «بالنقود الخارجة» أى المتداولة خارج دار السكة[٧] وبدأ الذمة وخاصة اليهود

(١) الونشريسي: المعيار، ج٥، ص٢٠٤، رشا سالم: المرجع السابق، ٢٦٦.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص٤٢٥.

(٣) الونشريسي: المعيار، ج٦، ص٤٢٥.

(٤) الحسن الوزان: وصف أفريقيا، ص٤٥٩، عاشور بوشامة: المرجع السابق، ص٣٤٦، زينب كرير: المرجع السابق، ص١٥٩.

(٥) ابن يوسف: المصدر السابق، ص١٣٧-١٣٨.

(٦) الونشريسي: المعيار، ج١٠، ص٤٠٩.

(٧) يوزياتى الدراجي: نظم الحكم فى دولة بنى عبد الود الزيانية، ديوان المطبوعات الجامعية،

فى تسليف التجار المسلمين الأموال[١] وكانت هذه الديون على التجار المسلمين هدفها مداينتهم حتى يتم بالاتفاق فجعلت التجار المسلمين تحت سيطرة اليهود وأدى ذلك فى تحكم اليهود فى الأسواق واشتد البلاء على التجار، فظهرت فئة من العوام لحراسة القوافل التجارية كمهنة لهم.

خلاصة القول:

كان لضعف السلاطين الحفصيين ونفوذ الوزراء أثر فى غياب دور المحتسب وانهيار الأسواق، وكانت لكثرة الصراعات والدسائس من أجل السلطة أثرها فى انهيار التجارة وكسدها وسوء حال التجار وزيادة نفوذ التجار اليهود وفى ظل غياب واضح وصريح من السلطة الحفصية.

الوزراء والتجارة الخارجية:

بلغت الدولة الحفصية مكانة عظيمة من التقدم فى عهد السلاطين الأقوياء وقامت بعلاقات تجارية واسعة مع الدول المجاورة لها، وذلك بحكم موقعها الجغرافى المتميز[٢] وشهدت التجارة الخارجية تطورًا كبيرًا فازدهرت التجارة الحفصية مع الدول الأوروبية فى حوض البحر المتوسط الغربي، وأصبحت هذه الدول تخاطب السلاطين الحفصين ووزراءهم[٣] وساعد على ذلك وجود شبكة جيدة من طرق التجارة البحرية والبرية[٤] واستقرار الأحوال السياسية

الجزائر، ١٩٩٣، ص٢١٤.

(١) إبراهيم القادري: الإسلام السري، ص٢١٩، رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٦٧.

(٢) منى سيد: المرجع السابق، ص١٣١.

(٣) مريم جبودة: المرجع السابق، ٨٣.

(٤) كانت الطرق البحرية من بلاد أفريقيا والأندلس تقلع من تونس وطبرقة وبونة وتنس

للدولة الحفصية فى عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المخلصين فى تنفيذ هذه السياسات حيث أمنوا الطرق ونشروا الأمن وحرصوا على إقامة اتفاقيات تجارية مع النصارى مثل أرجوان وصقلية[١] وفى عهد السلطان أبى زكرياء الأول القوى المسيطر على أمور دولته، وبمساعدة وزرائه له، فقد عقدت اتفاقيات تجارية مع البندقية فى أكتوبر ١٢٣١م[٢] وبيزة فى أواخر

ودهران اتجاه موانى الأندلس ثم أحيانًا إلى سبتة، وطرق بحرية أخرى تربط بين المرافئ الأوربية وأفريقيا، وطرق بحرية إلى بلاد المغرب المجاورة من تلمسان والمغرب الأقصى وطرق برية شمالية جنوبية تربط أفريقيا بالسودان، وطرق برية شرقية وغربية تصل أفريقيا بأقطار الشرق من جهة والأندلس والمغرب من جهة أخرى، راجع: الاصطخري: مسالك الممالك، ت/ محمد جبر عبد العال: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة ٢٠٠٤م، ص٣٣-٣٤ ابن حوقل: المصدر السابق، ص٦٥-٧٩، مجهول الاستبصار، ص١٦١، وليفيا كونيستل: التجارة فى الأندلس، تعريب/ فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، الرياض، ج١١، ٢٠٠٢م، ص٧٣-٧٤-٧٥، جورج مارسيه: بلاد المغرب وعلاقتها مع المشرق فى العصر الوسيط، ترجمة: محمود عبد الصمد هيكل: منشأة المعارف الإسكندرية، ١٩٩١م، ص٣٢٨.

(٢) الونشريسي: المعيار، ج٨، ص٢٠٨، الطاهر محمد توات: أدب الرسائل فى الغرب العربى فى القرنين السابع والثامن الهجري، رسالة دكتوراه غير منشورة، كلية الآداب – جامعة الإسكندرية، قسم اللغة العربية وآدابها، ص٢٦١-٢٦٦، مريم جبودة: المرجع السابق، ص٨٣، رشا سالم: المرجع السابق، ص٢٦٨،

Mas Latrie: op.cit., ١٩١ Thompson: Economic and Social History of the Middle Ages. Vol. ١ page ٤٤٨.

(٣) منى سيد: المرجع السابق، ص١٣٢ (البندقية تسمى فينيسيا، وقد نشأت على جزيرة ريالتو أكبر جزر البندقية (Rialto) وإليها جاءت قبيلة فينيت (Venet) التى أخلت الانقسام الشمالية الشرقية من إيطاليا فى التاريخ الرومانى المبكر وأطلق عليها اسم فينيسيا فى القرن ١٣م على مجموعة جزر اللاجئين فى تلك الجهات، راجع عبد القادر أحمد اليوسف والعصور

١٢٣٤[١] وجنوة فى ١٠ يونيه ١٢٣٦[٢] ونصت هذه المعاهدات على زيادة أصحاب التيار التجارى وضمان الأمن واستقرار النصارى فى دار الإسلام، ووقع أبو زكرياء ووزرائه اتفاقية مع فردريك الثانى كانت أشبه ما يكون بعلاقة المنتصر والمهزوم، حيث توجت بأن يدفع أبو زكرياء الحفصى لفردريك ضريبة تقدر بثلاثة آلاف قطعة ذهبية[٣] وهذه الاتفاقية كانت تهدف إلى حماية موانئ أفريقية من القرصنة، بالإضافة إلى خوفه من هجوم تلك المدن على تونس والحرب ضده، وكان إنزال بحرب الثوار والخارجين عليه.

وفى عهد أبو زكرياء الحفصى ووزرائه ازدهرت التجارة الخارجية مع المدن النصرانية ازدهارًا ملحوظًا ومثمرًا وكانت لحركة التجارة فى كل من تونس وبجاية أشد كثافة من نفس الحركة فى الجمهوريات الإيطالية التجارية[٤] فارتبطوا بعلاقات ممتازة مع جاره فردريك الثانى صاحب صقلية[٥] وكذلك أقام أبو زكرياء علاقات متينة مع خايم الغازى ملك أراجون حينما استقبل الوزراء الحفصيون سفير أراجون فى تونس من أجل توطيد هذه العلاقة

الوسطى الأوروبية ٧٤٦هـ / ١٣٢.

(Dara: Histoire de venise, braxelles, ١٨٤٠, part ١, P.P. ٥ ١٣٢.

المطوي: السلطة ص١٥٦. Mas Latri, oput, P. ٨٣.

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٦، المطوي: Amari: d' plomi P. ١٥٦.

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص١٦. Mas latri: op.cit., ٢٣/١١٧/١٦.

(١) المطوي: السلطنة، ص١٥٧ عن هذه الاتفاقية راجع برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٥٧.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٦٤. Mas. Latrie, op.cit., ٦٤.

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص. Mas Latri, op.cit, P. ١١٧.

السليمة فى ميخاره[١] وكذلك استقبل السلطان أبو زكريا ووزرائه فى ٢٠ إبريل ١٢٣١ سفارة مرسليا، وعقدوا معاهدة تجارية بين البلدين[٢] واستمرت العلاقات التجارية مع الدول المسيحية فى عهد السلطان المستنصر ووزرائه، فقام بتجديد معظم المعاهدات، ووقع عدة معاهدات أخرى فى وجود وزرائه أو ما ينوب عنهم ممثلى عدة دول أوروبية[٣]، فأرسلت كل من جنوة والبندقية سفيرًا إلى تونس لإعادة السلم وكانت المعاهدة الأولى فى ١٨ أكتوبر ١٢٥١ لمدة عشر سنوات بواسطة المبعوث الجنوى غليوم شيبو (Guilellima Cibo) والثانية فى أول إبريل ١٢٥١ لمدة أربعين سنة بواسطة (Philip Guiellani) فيليب جيولياني[٤] وأرسلت بيزا السفير بارونت فيقسونتى Parent visconnti إلى تونس عام ٦٦٣ هـ ١٢٦٤م، وعقدت عهد مع السلطان الحفصى المستنصر ووزرائه، وأقر بالتمسك بجميع الامتيازات القديمة، وحرية التجار[٥].

وعندما أعتلى شارل دانجو charles danjou عرش صقلية ٦٦٥هـ، ١٢٢٦م اعتبر ملك تونس المستنصر الحفصى نفسه غير مرتبطًا بأية واجبات أو عهود موقعة مسبقة، مثل دفع الرسوم على الموارد الذى كانت تؤدى سنويًا إلى بلاد بالرمو Palermo، ونشبت اعتداءات بين سفن السلطان الحفصى وسفن

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٦٤.

(٢) Mas Latri, op.cit., ٨٢.

(٣) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، Mas latri, op.cit., P. ١٢٧/١٣٤

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص٧٣ .Mas latrie: op.cit., P. ١٢٧

(٥) Mas latrie: op.cit., P. ١٣٦.

كونت بروفنسا وامتنع السلطان الحفصى عن دفع الأتاوه المستحقة لصقليه[١].

وأمر السلطان المستنصر الحفصى وزراءه بضرورة إرسال سفارتين إلى مدينة جنوا، كانت السفارة الأولى عام ٦٤٩هـ / ١٢٥٠م، والسفارة الثانية عام ٦٧١هـ / ١٢٧٢م، كما أرسل سفارتين إلى مدينة البندقية، السفارة الأولى عام ٦٥٠هـ / ١٢٥١م، وأرسل إليها السفارة الثانية عام ٦٧٠هـ / ١٢٧١م، وكانت مدينة بيزا مثل سابقتها فأرسلت إلى تونس سفارة يقودها بارنت فسكنتى وأبرم مع الوزير أبى الحسين معاهدة فى ١٤ شوال عام ٦٦٢هـ / ١٢٦٤م[٢]، وأعطى للفرويين الذين كانوا تحت حماية أهل بيزا فى مدينة أفريقية حق التجارة والتعامل مستقلين عن مدينة بيزا، وأصبحت عملة الفلورين التى سكت عام ١٢٥٣م من الذهب الخالص متداولة فى أفريقية.

وفى عهد السلطان المستنصر سارع المسيحيون من أجل تجديد تلك المعاهدات بعد رحيل الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا من أجل انتشال الرعايا المسيحيين من أجواء الحروب المشوبة بالخوف والحذر فى جميع بلاد أفريقية، وعملوا على إعادة العلاقات بين الحفصيين والأوروبيين، فوافق السلطان ووزرائه على الفور[٣] وظلت العلاقات التجارية بين الجمهوريات الإيطالية وبنى حفص مستمرة طوال الثلاثين عامًا الأخيرة من القرن الثالث عشر الميلادى التى أعقبت هذه الحملة الصليبية[٤].

---

(١) Jamil Aban Nasr. Op. cit. p. ١٢١

(٢) Maslatrie. Op. cit. p. ٩١٥ , Dufourq, op. cit. p. ١٠٩

(٣) Jamil Abun Nasr, op. cit. p. ١٢١, Maslatrie, op. cit. p. ٩١

(٤) Jamil Aban Nasr, op. cit. p. ١٢١

وعندما توفى المستنصر عام ٦٧٥هـ / ١٢٧٧م[١] وفى عهد السلطان الواثق (-) ووزرائه الغالبين على أمره أمثال أبن الجبر المستبد علية[٢] وكذلك سعيد بن أبى الحسين وزير المالية[٣]. وأصبح أبن الجبر هو المتصرف الحقيقى فى شئون الإدارة العليا، وجمع بين الوزارتين الإنشاء والمالية بعد أن تخلص من منافسة ابن أبى الحسين، وبلغ الوزير ابن الجبر فى حجرة على السلطان فأطلق على لقب المصرف فى المعاهدة المبرمة مع ميورقة فى يوليو ١٢٧٨م، فوقع على المعاهدة بنفسه[٤] وفى مقر إقامة سفير ملك ميورقة خايم الأول(♣) وكانت معاهدة هذا الوزير مع ميورقة فى التجارة بالدولة الحفصية[٥]

(١) يذكر mas.latrie أن وفاة المستنصر كانت فى عام ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م، على العكس من الزركشى فبذكرة بعام ٦٧٥هـ وهو التاريخ الصحيح للوفاة لأنه كان معاصرًا للأحداث ويؤكد ذلك أبن خلدون، راجع الزركشى: المصدر السابق، ص ٤٠، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص

(٢) ابن خلدون العبر، مج ٦، ج ١٢، ص

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٦٧٨، أبن القنفذ، الفارسية، ص، المطوى: السلطنة، ص ٢٣٢، ٢٣٣، أبن الشماع: المصدر السابق، ص ٧٤، ٧٥.

(٤) أبن القنفذ: الفارسية، ص ١٣٥، برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٠٤ – ١٠٥.

♣ خايم الأول (١ jayme) هو خايم أراجون ولقب بالفاتح وبأ عهده بسياسة الأسترداد ومدن بلنسيه وشاطبة وأشتهر بنشاطه التجارى مع دول حوض البحر المتوسط، راجع: محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس (تاريخ العرب المتنصرين)، ج١١، القاهرة ١٩٤٩، ص ٩٨ – ٩٩، محمد محمود النشار: علاقة مملكت قستالة وأراجون بسلطنة المماليك، ج١١، ١٩٩٠، prieto: polica aragonesa enafrica hasta.la muerta defernando et catolico. Madrid , ١٩٥٢ , p. ٤٩ – ٥٠

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ١٠٧

وفى عهد السلطان الحفصى أبى حفص عمر ٦٨٣هـ - ٦٩٤هـ / ١٢٨٤م - ١٢٩٣م حدثت بعض المتاعب والمضايقات لبعض التجار الجنويين على السواحل الأفريقية وقد قدمت حكومة جنوه شكاوى للسلطة الحفصية المتمثلة فى الوزير أبى زيد عيسى الفازازى الذى رفعها إلى السلطان الحفصي[١] الذى نظر فى الشكاوى ثم عقد اجتماع رسمى حضرة وزرائه بعض وقناصل الدول فى بدينة عام ١٢٨٧م الذى تضمن بعض القواعد الجديدة للعلاقات بين الحفصيين وجنوه[٢] واستمرت العلاقات التجارية بين الحفصيين والبندقية حيث عقد السلطان الحفصى أبو عصيدة (٦٩٣ هـ - ٧٠٩ هـ / ١٢٩٤م - ١٣٠٩م) فى حضور وزرائه معاهدة تجارية جديدة عام ١٣٠٥ م مدتها عشر سنوات[٣] وكان للوزير الأكبر أبى يحيى اللحيانى دور كبير فى هذه المعاهدة لأنه كان ممثلًا للسلطان أبى عصيدة[٤].

وكانت كل هذه الامتيازات التى جعل عليها البنادقة والجينويين وباقى الممالیك الأوربية فى تونس الحفصية يعبر عن مدى ما وصلت إلية الدولة الحفصية من ضعف وتدهور وانهيار بسبب ضعف السلاطين وتحكم الوزراء ورجال السلطة فى مقاليد الحكم، مما أدى إلى تدهور الحركة (العملية) التجارية مع هذه الممالیك، ووهنت السلطة المركزية للسلطة الحفصية لدرجة

(١) الزركشى: المصدر السابق، ص، برشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٢٣

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ١٢٣، ١٢٧ - ١٢٥ .mas latrie: opait p

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ١٤٨، مريم جودة: المرجع السابق، ص ١٤٠

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ص ١٤٨، mas,latrie.opcet p.١٥٨

أنها عجزت عن التصدى للأخطار المهددة كيانها، فلم تحرك ساكنًا[١] وعقد وزراء السلطان أبى زكريا اللحيانى معاهدة تجارية جديدة عام ٧١٣هـ / ١٣١٣م مدتها عشر سنوات وذلك من أجل ضمان المصالح التجارية للطرفين من أمور البيع والشراء والاداءات الجمركية والإقامة[٢] وحضر وزراء أبى زكرياء اللحيانى أثناء هروبه المعاهدة بين سفير البندقية والسلطان أبى ضربة عام ٧١٧هـ / ١٣١٧م، وذلك يتفقد الأمارة بتونس وذلك من أجل تجديد معاهدة ١٣٠٥م[٣] وهنا لابد من وجود حضور الوزراء لمثل هذه المعاهدات سواء كان الوزير الأكبر أو وزير الإنشاء من حضور وكتابة المعاهدة.

واستمرت العلاقات بين تونس الحفصية والدول الأوروبية حتى فى عهد السيطرة المرينية[٤] حتى استطاعت الدولة الحفصية من السيادة على أراضيها واعتلى السلطان الحفصى العرش الحفصى وهزمه وطرد المرينين[٥] فأرسلت بيزا خطابًا إلى السلطان الحفصى غيرت من مشاعرهم الطيبة تجاهه فرد السلطان الحفصى أبو إسحاق بن يحيى أبى بكر ٧٥١هـ - ٧٧١هـ / ١٣٥٠م - ١٣٦٩م، عليهم برسالة طمأنهم فيها على أحوال البيزنين وأن الحكومة الحفصية من سلطان ووزراء جادين فى حماية ورعاية رعاياهم، وتسهيل

(١) المطوى: السلطنة، ص ٢٧٩

(٢) Michele amari , opcit pp.٨٦- ٩٧، برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ١٦٤

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ١٦٤، Mas latrie: op cit. p.

(٤) Michele amari: op cit p.p.٣٠٩- ٣١٢، مريم جبودة: المرجع السابق، ص ١٤١

(٥) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٨٣

أمورهم وأحوالهم بالعدل[١] وهنا لا ننكر دور وزراء الإنشاء للسلطان أبى إسحاق يحيى فى عملية تبادل الرسائل[٢] وعندما سيطر الوزير ابن تافراجين على مقاليد الحكم تمامًا[٣] أقام معاهدات وعلاقات تجارية مع بيزا وارجوانه، وأبرم بتونس معاهدة سارية المفعول لمدة عشر سنوات فى ١١ ربيع الثانى ٧٥٤هـ / ١٦ مايو ١٣٥٣م،باسم السلطان أبى اسحاق مع سفير بيزا وينير بورشلينى[٤] وكانت هذه المعاهدة توضح وتستعيد بعض المسائل المتعلقة بالعمليات والرسوم الجمركية، ولم تتوطد العلاقات الحفصية الأرجوانية إلا بعد فشل الغزو المرينى نهائيًا[٥] وفى ٢٤ صفر ٧٦١هـ / ١٥ جانص ١٣٦٠م أبرمت معاهدة لمدة عشر سنوات مسيحية بين الوزير ابن تافراجين وبين سفير بيدرو ملك أرجونة، وكان هناك بندان مميزان فى هذه المعاهدة وهما حق هجوم الأرجوانيين على السفن القشتالية فى سواحل إفريقية وحتى فى ميناء تونس واحتجاز من فيها من مؤن وأشخاص، والبند الثانى هو تسديد تونس لملك أراجون طوال مدة المعاهدة ضريبة سنوية قدرها ألف ديلون تضمنها نصف الأداءات الجمركية المدفوعة فى جميع الموانى التونسية[٦] وقبلت تونس المتمثلة فى الوزير القوى أبن تافراجين دفع هذه الضريبة وأرسل الوزير ابن تافراجين

(١) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢، مريم جبوده: المرجع السابق، ص ١٤١

(٢) العبادى: دراسات، ص ١٨٨

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٨٢٩، المطوى: السلطنة، ص ٤٣٦

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص٢١٢،

Amari: op. cit.pp ٩٨ – ١١٤ / Mas latrie. Op. cit. pp ٥٥ – ٥٦

(٥) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢

(٦) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢١٢ -٢١٣

وفدًا إلى بيدرو محملًا برسالة احتجاج معتدلة اللهجة[١].

ومع تولى السلطان أبى العباس أحمد الحكم الحفصى، تقدمت عملية الخضوع للمعاهدات الأوروبية، حيث سعت جنوه لعمل معاهدات مع السلطان الحفصى فى ١٦ أوت ١٣٨٨ بحضور وزراء السلطان الحفصى والسفير الجنوى لوكافلو[٢] كما كانت سياسة السلطان الحفصى ووزرائه قاسية مع الدولة الأوروبية، وكان من الصعب على هذه الدول فى التعامل مع السلطان بسبب نشاط المجاهدين المسلمين فى البحر المتوسط ضد القرصنة الأوروبية التى لم ترق لتلك الدول فقامت باستعراض قواها على السواحل الأفريقية الحفصية، وشاركت فرنسا وجنوة وبيزا فى هذه الحرب والمهمات التى باءت بالفشل بسبب الخلافات بين الدول الأوروبية وحرب المناوشات من جانب الجيش الحفصى[٣] ومع ذلك استمرت التجارة والتجار الأوروبيون فى السواحل الحفصية من أجل إنعاش عملية التجارة بسبب قوة السلطان الحفصى ووزرائه المعاونين له فى إدارة شئون البلاد[٤].

واستمرت الجمهوريات الإيطالية تقدر السلطة الحفصية فى عهد السلطان أبى العباس أحمد وحتى السلطان أبى عمرو عثمان من بعده، حيث لجأت بيزا للتعامل مع السلطان الجديد القوى ووزرائه المحالفين له، وبالفعل تمت

(١) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٢١٣

(٢) Mas latrie: op. cit. p – ١٣٠، المرجع السابق: نفس الجزر، ص ٢٢٩

(٣) برنشفيك: المرجع السابق، ج١، ص ٣٣٠ – ٣٣٤

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص٨٨٦، الزركشى: المصدر السابق، ص ١٠٦، أبن القنفذ: الفارسية، ص ١٧٨، المطوى: السلطنة، ص ٤٨٣

معاهدة صلح بين السلطان الحفصى أبى فارس ومعه وزرائه طرف أول والطرف الثانى كان مندوب بيزا فى ٢٣ ربيع أول ٨٠٠هـ / ١٤ ديسمبر ١٣٩٧م، وتعلقت هذه المعاهدة بتسوية جميع المسائل المتعلقة بممارسة التجارة والأحوال المالية للطرفين(١) ولكن عندما هاجمت ثلاث سفن جنوية على أربع سفن تونسية بالقرب من سواحل صقلية أسرعت جنوه إلى تقديم اعتذاراتها إلى السلطان الحفصى أبى فارس ووزرائه الذين شجعوه على حجز البضائع الجنويه الموجودة بتونس وذلك من باب الاقتناص(٢).

كما جددت البندقية معاهدتها عام ١٣٩١م فى عام ١٤٠١م مع السلطان أبى فارس ووزرائه من أجل التجارة والتجار بين الدولتين(٣) وجرت مفاوضات بين حاكم صقلية مارتن الأصغر وبين السلطان الحفصى أبى فارس ووزرائه إلا أن تلك المفاوضات تعطلت بسبب موت حاكم صقلية فجأة وحدوث مشكلات على الحكم(٤) ثم بدأت بعدها محاولات صقلية للسيطرة على جزيرة جربه والساحل التونسى ولكنها فشلت واتخذت سياسة معادية ضد الحفصين، ولكن ذلك لم تخدم العلاقات التجارة بين الطرفين، فحاول تحقيق علاقاتهم معهم، فجرت عدة مفاوضات من عام (١٤٣٨م – ١٤٥٦م) من أجل حماية التجارة والتجار بين البلدين ولكنها تعثرت بسبب أزدياء أعمال

(١) Amari:Dplomi. pp ١٢٣ – ١٣٥ , Mas latrie: op. cit. pp. ٧٠ – ٨٧.

(٢) برنشفيك: المرجع السابق،ج١، ص ٣٤٨

(٣) المرجع السابق: نفس الجذر، ص ٢٤٩

(٤) برنشفيك: المرجع السابق، ص٢٥٦

القراصنة حتى لاقت قبولًا من السلطة الحفصية[١] التى تتمثل فى السلطان ووزرائه وتمت معاهدة تجارية آخرى بين جنوه والسلطة الحفصية المتمثلة فى الوزير الحفصى أبى هلال وذلك فى ٤ صفر ٨٤٨هـ / ٢٣ مايو ١٤٤٤م من أجل تحديد مسئولية أصحاب السفن الجنويين المؤجرة إلى الرعايا الحفصين وأعطت جنوه هذه المعاهدة أيضًا تشجيع كبير للتجارة الجنويه فى إفريقية[٢] واستمرت العلاقات الطيبة بين البلدين حتى عام ١٤٤٨م و ١٤٤٩م حيث تعددت شكاوى الجنويين ضد السلطة الحفصية بسبب عرقلة عمل قنصل الجمهورية بتونس وفقا لعمليات القرصنة البحرية[٣].

ولم تكن فلورانس أقل من جنوه فى علاقاتها بالدولة الحفصية حث أرسلت مبعوثها بالديناشو ابن أنطوتيودى إبرى لتأكيد الصلح وتم إبرام معاهدة صلح بتونس مع كبير الوزراء ابن أبى هلال فى منتصف محرم ٨٤٩هـ / ٢٠ إبريل ١٤٤٥م[٤] وكانت أهم بنود تلك المعاهدة التى وقعها كبير الوزراء الحفصى أبو هلال هى ضبط مدة المعاهدة بإحدى وثلاثين سنة شمسية، على تحديد الأداء الجمركى العادى الموظف من قبل السلطة الحفصية على البضائع المستوردة بنسبة ١٠,٥٪ وبند آخر ينص على فرض أداء على القيمة قدره نص٪ على رعايا فلورانس الراغبين فى بيع السفن إلى النصارى

(١) الطيبى: المرجع السابق، ص ٩٣

(٢) برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٨٣ – ٢٨٤

(٣) المرجع السابق: نفس الجزء، ص ٢٨٤

(٤) ٣٦٠ – ٣٥٤.Amari: op. cit pp. ١٦٩ – ١٨٠ * Mas – latire: op cit pp برنشفيك: المرجع السابق، ج ١، ص ٢٩٣

الآخرين فى الموانى الحفصية وذلك لفائدة الإدارة الحفصية[١].

وبعد وفاة آخر سلاطين بنى حفص العظام ووزرائه المخلصين له ولدولته اضطرب الوضع الداخلى للبلاد وانتشرت الثورات التى أثرت بالفعل على العلاقات التجارية مع الدول الأوروبية ولكنها ظلت مستمرة من الناحية الشكلية ولكنها تأثرت من الناحية العملية، حيث حرصت جنوه ونابولى على استمرار عقد المعاهدات مع وزراء السلاطين الضعاف المتآمرين على السلطة حتى انتهت الدولة الحفصية عندما استولى الأسبان ثم استيلاء الأتراك على تونس بعد القبض على محمد بن الحسن الحفصى وإرساله به إلى اسطنبول خشية هروبه والاستعانة بالأسبان[٢] وكانت أهم المعاهدات التجارية تعمل تأمين عملية التبادل التجارى بين الدولة الحفصية والدول الأوروبية وكانت أهم صادرات الدولة الحفصية إلى أوروبا تتمثل فى المواد الخام كالصوف والجلود والقمح والزيت والفواكه والمرجان والملح والسجاد والفخار والسلاسل والحصر المصنوع من الحلفا وبعض الأقمشة[٣] والزيتون وزيته[٤] والقمح[٥].

وصدرت تونس الحفصية إلى المدن الإيطالية وفرنسا الصوف الخام

---

(١) MAS – latire op cit , pp ٣٤٨ , ٧٦

(٢) أبن أبى دينار: المؤنس، ص، أبن أبى الصناف: المصدر السابق، ص

(٣) الدولاتيلى: مدينة تونس، ص ٧٥، كان البنادقة هم محتكرى شراء الملح من طرابلس وجربه وصدره إلى جنوه وباقى أوروبا، راجع التجانى: الرحلة، ص ٢٠٦ – ٢٠٧، – MAS latrie: op cit , p ٢١٨

(٤) البكرى: المغرب، ص٢٠، مجهول: الأستنصار، ص ١١٦ – ١١٧

(٥) الحسن الوزان: المصدر السابق، ص ٤٣٣

والأقمشة الكتانية والصوفية[١] والمرجان أيضًا صدرته تونس الحفصية إلى أوروبا لعمل الحلى والمجوهرات[٢]، كما صدرت تونس العبيد والذهب إلى صقلية[٣] وكان لأهالى تونس دورهم فى تصدير توابل الشرق[٤] وحريره ومصنوعاته[٥] كما صدَّر التجار التونسيون الماشية إلى جنوه[٦] كما صدرت تونس الحفصية إلى الجمهوريات الإيطالية لحاء يسمى " لحاء بجاية " يحتوى على نسبة من الأحماض استفددت منها هذه الجمهوريات فى صناعة الدباغة[٧] وكان التمر من صادرات تونس إل بيزا والبندقية وجنوه بالإضافة إلى العسل والشمع[٨] وأيضا صدرت تونس أسماك التونة والأسماك المجففة[٩] وكذلك صدرت العاج[١٠].

وكانت أهم الواردات الحديد والقصدير[١١] وجميع أنواع التوابل من

(١) سلفاتورى بوتو: المرجع السابق، ص ٣٢٦، MAS – latrie: op cit , p ٢١٦، عز الدين أحمد موسى: النشا الاقتصادى، ص ٣٢٧

(٢) الوزان: المصدر السابق، ص ٤٣٣

(٣) الطيبى: دراسات، ص ٨٣، MAS – latrie: op cit , p ٢١٥

(٤) نجاة باشا: التجارة فى المغرب الإسلامى، ص ٦٤

(٥) ارشيبالد: القوى البحرية والتجارية فى حرب المتوسط، ص ٢٠٢، مريم جبوده: التجارة فى بلاد إفريقية، ص ١٤٧

(٦) عز الدين موسى: النشاط الأقتصادى، ص ٣٢٧

(٧) سلفاتورى بونو: المرجع السابق، ص ٢٢٧، MAS – latrie: op cit , p ٢١٧

(٨) MAS – latrie: op cit , p ٢١٨

(٩) MAS – latrie: op cit , p ٢١٦

(١٠) سلفادتورى بونو: المرجع نفسه، ص ٣٢٧

(١١) نجاة باشا: المرجع السابق، ص ٦٦

obeikandl.com

الفلفل وجوز الطيب[١] واستوردت تونس أنواعًا مختلفة من الجوخ والحرير والدمس والكتان والتيل الناعم والخشن المسمى " الفوتروكن " أو المخزونى من بيزا وجنوه والبندقية[٢] واستوردت تونس الحفصية السيوف من بيزا[٣] وكذلك القطن والكتان[٤] واستوردت تونس الحفصية من جنوب ايطاليا الاخشاب الخام والمنشور[٥] وكذلك مواد الطلاء من البندقية وجنوة وبيزا[٦] واستوردت اخشاب الصنوبر من البندقية من اجل تصنيع وتصليح السفن[٧] ثم استوردت تونس الحفصية المعادن النفيسة والنقود من الذهب والفضة والسبائك سواء للأعمال الخاصة بالصناعة او بمراكز العملة المنتشرة فى تونس وبجاية وطرابلس، وقد وافق ملوك تونس على تخفيض نصف الرسوم العادية على كل ١٠٪ على هذه الواردات والاعفاء الكامل عن المعادن التى كانت تشترى للعادات الخاصة أو بمراكز العملة[٨] وكذلك استوردت تونس الحفصية الزجاج والخرز من البندقية[٩] واستوردت العطور والعقاقير

(١) نعيم زكى: طرق التجارة / ص ٢٠٥ هامش

(٢) نعيم زكى: المرجع السابق، ص ٢٠٥، محمد حسن: المدينة والبادية، ج٢، ص ٥٠٢، MAS – latrie: op cit , p ٢١١

(٣) الزهرى: المصدر السابق، ص ٧٨، مريم جبوده: المرجع السابق، ص ١٤٨: إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، ج ٢، ص ٨٤، MAS – latrie: op cit , p ٢١٠

(٤) الزهرى: المصدر السابق، ص ٧٨

(٥) سلفاتورى يونو: المرجع السابق، ص٦٦

(٦) MAS – latrie: op cit , p ٢١٠

(٧) نجاة باشا: المرجع السابق، ص٦٦

(٨) MAS – latrie: op cit , p ٢١٠

(٩) MAS – latrie: op cit , p٢١٤

الطبية[١] والمواد المساعدة فى الصباغة. والتبيض[٢] والأوانى المعدنية والخردوات[٣].

وحرص السلاطين الحفصيون ووزرائهم على استيراد القمح الصقلى[٤] وكذلك استوردت تونس فى حالة ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء كميات كبيرة من الخمور[٥] التى انتشر متناولها فى فترات ضعف الدولة وغياب دور المحتسب لسيطرة الوزراء على أمور الدولة وفى فترات ضعف السلاطين الحفصيين وزيادة نفوذ الوزراء وسيطرة التجار الايطاليين والبيازون على الملاحة والتجارة فى البحر المتوسط[٦] مما سبب إضرارا بالغة بالتجارة المغربة والتونسية، مما دفع الحفصيون إلى عمليات الجهاد البحرى " القرصنة "[٧] من اجل حماية تجارتها ومقاومة الهيمنة الأوروبية على عملية التجارة[٨] بل اشتدت

(١) MAS – latrie: op cit , p ٢١٢

(٢) MAS – latrie: op cit , p٢١٢

(٣) MAS – latrie: op cit , p ٢١٠

(٤) MAS – latrie: op cit , p ٢١٢

(٥) ابراهيم حركات: العرب عبر التاريخ، ج٢، ص٤٨

(٦) مجموعة مؤرخون: العرب والالام فى النهضة الأوروبية، مقال بعنوان، المعارف الملاحية العالمية فى القرون الوسطى واثرها فى عصر النهضة: رشا سالم: المرجع السابق ص٢٧٠

(٧) كانت المعاهدات التى تعقد بين ملوك تونس ووزرائهم وملوك النصارى تشير دائما إلى القضاء على القرصنة والالتزام بملاحقتها وجمعها، وتقديم المساعدات والعون وحماية السلع والسفن

رابع: سلفاتورى بونو: العلاقات التجارية، ص٣٢٥

(٨) امين توفيق الطيبى: دراسات، ص١٣٠، رشا سالم: المرجع السابق، ص٧٠م

openkandil.com

ممارسة النصارى لعملية القرصنة ضد مراكب التجار الحفصيين مما أدى إلى تعرض هؤلاء التجار للموت، وإن نجا احد منهم فانه تعرض لضائقة مالية ومسائلة قانونية، وخاصة إذا كان يشترك مع آخرين فى البضائع والمراكب الغريقة أو المسلوبة(١).

ومع تدهور الأحوال السياسية للدولة الحفصية وما ينتج عن ضعف السلاطين ونفوذ الوزراء تدهورت أحوال التجارة الخارجية مع الدول الأوروبية مع سيطرة العرب على طرق التجارة الداخلية(٢) كما كسدت التجارة الخارجية بسبب كثرة الرسوم والضرائب على السلع المستوردة، فكان المستفيد الأول من تلك العملية هى أصحاب النفوذ من الوزراء ومعاونيهم من كبار التجار، بينما وقعت الأعباء والزيادات على كاهل المواطنين من ذوى الدخل المحدود(٣).

العلاقات التجارية بين الدول الحفصية والمرينين:

لم يقتصر اهتمام السلاطين الحفصين ووزرائهم على العلاقات مع الدول الأوروبية فقط بل اهتموا بالعلاقات التجارة مع المغرب الأقصى والأوسط وصدرت الدولة الحفصية إلى المغرب المرينى التمور والفستق والعطور والأحجار الكريمة(٤) ولعبت الدولة الحفصية دور الوسيط التجارى، حيث

(١) الونشريسى: المعيار، ج٨، ص٣٠

(٢) عبد الله العروى: تاريخ المغرب محاولة فى التركب، ترجمة دوقان قرقوط، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ج١ بروت ١٩٧٧، ص٢٣٨

(٣) عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٣٤٦

(٤) العمرى: المصدر السابق، ص، عمر سعيدان، علائق الحفصين ببلاط أراغون، ص١٦

كانت تصدر إلى بلاد المغرب الأقصى الكثير من السلع الواردة عليها من المشرق وأهمها المنسوجات الحريرية، والدمش، والبردى، والتوابل، والقطن، والعاج وريش النعام، والعطور[١] وبينما استوردت الدولة الحفصية من المغرب المرينى السكر، والعنبر، والصابون المغربى، وبعض أنواع العطور والقمح والورق والمصوغات الذهبية والفضية وغيرها من الصناعات[٢] وعندما ضعفت الدولة الحفصية فى فترات القوة المرينية والغزوات المرينية ونفوذ الوزراء الحفصين الذين لعبوا دورًا هامًا مثل أبن تافراجين وغيرهما من الوزراء المستبدين[٣] والحروب بين السلطان أبى الحسن المرينى والقبائل العربية والجيش الحفصى فى أراضى الدولة الحفصية[٤] تأثرت التجارة بين الدولتين وتدهورت حياة التجار وانقطعت الطرق التجارية بين الدولتين، حيث خاف التجار والأفراد على أموالهم وتجارتهم فى مثل هذه الظروف الصعبة[٥].

(١) مارمول كربخال: إفريقيا، ج ٣، ص ١٢٤، عمر سعيدان: علائق الحفصيين، ص ١٥ – MAS – latrie: op cit , p ٣٦٨ , ٣٨٢،١٦

(٢) عاشور بوشامه: المرجع السابق، ص ٤٠٥ – ٤٠٦

(٣) ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج١٢، ص، الكفيف الزرهونى: الملعبة،ص ١٩، الأنصارى: فهرست الرصاع،ص ٢٠ هامش، المطوى: السلطنة، ص ٣٩١ – ٣٩٣

(٤) يحيى بن خلدون: الغية الرواد،ج ١، ص ١٩، ٢٣٥، ابن أبى دينار: المؤنس، ص ١٦٩،ابن رضوان: الشهب اللامعة، ص١٥، الكفيف الزرهونى،: الملعبة، ص ٢٠، مقديش: المصدر السابق، ج١، ص ٥٢٧، ٥٧٦، السلاوى: الاستقصا، ج ٣،ص ١٦٢، جوليان: تاريخ أفريقيا الشمالية، ص ٨٤

(٥) عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٠٦

العلاقات التجارية بين الحفصين وبنى عبد الواد:-

ارتبطت الدولة الحفصية بجارتها الزيانية بعلاقات تجارية وثيقة بسبب تداخل الحدود فيما بينهما من الناحية السياسية والعسكرية والجغرافية[١] فصدرت البلاد الحفصية التمور والفستق والعطور والأحجار الكريمة إلى دول بنى عبد الواد[٢] كما صدرت الدولة الحفصية إلى الدول الزيانية الملح، والأسماك المملحة، والشمع، والمرجان، والصابون، والحديد، والزيت[٣] كما صدرت الدولة الحفصية السلع المشرقية إلى بنى عبد الواد بالمغرب الأوسط[٤] واستوردت الدولة الحفصية التين، والكتان، والقمح، والشعير، العديد من المصنوعات الزيانية، وأنواع عديدة من الحبوب[٥] وكان التجار الحفصيون حرصين على الحضور إلى سوق تلمسان ببضائعهم لأنه كان يعتبر من أهم الأسواق فى إفريقيا[٦] حيث حرص السلاطين الحفصيون ووزرائهم فى حالة قوة الدولة على توفير الأمن والأمان على الطرق التجارية المؤدية إلى دولة بنى

(١) محمد القبلى: الدولة والولاية، ص٤٣؛ مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبقال، ١٩٨٧، ص٢٠٧، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٥٦ – ٥٧، محمد إسماعيل:المرجع السابق، ص ٢٧.

(٢) عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٠٤

(٣) عمر سعيدان، علائق الحفصيين، ص ١٦، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٤٠٤

(٤) مارمول: إفريقيا، ج٣، ص ١٢٤، عمر سعيدان: علائق الحفصين، ص١٥ -١٦، MAS – latrie: op cit , p ٣٦٨

(٥) مختار حساني: تاريخ الدولة الزيانية دار الحضارة، الجزائر ٢٠٠٧، ج٢، ص ١٤٥-١٤٦ وصفحات متفرقة.

(٦) نجاة باشا: المرجع السابق، ص ٥٤، عاشور بو شامة: المرجع السابق، ص ٣٣٥، الإدريسى: المصدر السابق، ج ١، ص ٢٤٨، مجهول: إفريقيا، ورقة ٢٦ أ

عبد الواد[١] كما أثرت الحروب بين الدولتين على عملية التجارة بينهما[٢] ومع ضعف قوة السلاطين الحفصيين وزيادة نفوذ الوزراء ووصلت حالة الوهن إلى البلاد وسيطرت القبائل على الدولة وتدخلت فى الحياة السياسية[٣] فظهر الأشرار وقطاع الطرق وعمت الفوضى والاضطرابات وانهارت وتدهورت معها التجارة بين الدولتين[٤].

العلاقات التجارية بين الحفصيين ومصر:-

ارتبطت الدولة الحفصية بعلاقات تجارية نشطة مع مصر، حيث حرص التجار الحفصيون من جميع البلاد الحفصية للاتجار مع مصر لقرب الحدود بين البلدين[٥] حيث حرص السلاطين الحفصيون الأقوياء ووزرائهم على توثيق علاقاتهم مع سلاطين المماليك فى مصر، حيث أمر السلطان الحفصى أبو العباس أحمد المسيطر على أمور دولته ووزرائه، حيث أرسل إلى الظاهر برقوق خمسة من الجياد الرائعة التى انتقاها له السلطان الحفصى من جياده الخاصة بناءًا على طلب السلطان المملوكى الظاهر برقوق[٦].

---

(١) مارمول كربخال: إفريقيا، ج٣، ص ١٣٧

(٢) ابن القنفذ: الفارسية، ص ١٧٥ – ١٧٦ – ١٧٧، السلاوى: الأستقصا، ج٣، ص ٧٩ – ٨٠، عبد القادر بو طبل: تاريخ مدينة أبو حمو، ص ٢٣

(٣) محمد سعيد: القبائل الهلالية والسليمية وعلاقاتها بالدولة الحفصية: رسالة ماجستير غير منشورة. كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة تونس، عام ١٩٨٧، ص ٩٢

(٤) ابن خلدون: العبر، مج ١، ج١٢، ص ٧٢: مجهول، ذكر قضية المهاجرين، ورقة ٧ أ

(٥) الوزان: وصف إفريقيا، ص ٤٥٦، ٤٦٥، ٤٦٦

(٦) ابن خلدون: رحلته شرقًا وغربًا، ص ٣٤٠، ٣٤٥

وكانت القوافل التجارية تخرج من مدن إفريقية الحفصية الموازية للساحل متجهة نحو الشرق إلى طرابلس ثم إلى قصور مسراته ثم برقه ولقية ثم إلى الإسكندرية[١] وحمل التجار الحفصيون على قوافلهم ومعهم زيت الزيتون، واللوز، والفستق، من قفصه وتونس[٢] وكذلك العمائم والادرية والطبالس والطواقى والملابس الصوفية[٣] والزبيب[٤] وكذلك صدر العسل والصوف الخام من طرابلس[٥] وصدرت البلاد الحفصية إلى مصر الرقيق المجلوب من بلاد السودان أو من عمليات القرصنة للسفن الأوروبية[٦] حيث ظهر الرقيق الأبيض بكثرة فى مدينة بجاية[٧] وكانت السفن والقوافل الحفصية تعود من مصر محملة بالتوابل بأنواعها من فلفل وجوز الطيب والقرنفل والرواتو والقرفة والزنجبيل وجوز الطيب، والأقمشة الكتانية الناعمة ومختلف المنسوجات المنقوشة والمذهبة[٨] حتى وجدت بمصر سوق تسمى سوق المغاربه[٩] ونجد أن العمليات التجارية تزدهر مع مصر فى عهد السلاطين

(١) ابن سعيد: بسطة الأرض، ص ٨٠، ٨١

(٢) مجهول: الاستبصار، ص ١١٦، ١١٧، ١٥٣، ١٥٤، الوزان، وصف إفريقيا، ص ٤٥٠

(٣) مجهول: الاستبصار، ص ١٥٤، ١٥٩، ١٧٠، ابن سعيد، بسطة الأرض، ص ٦١، أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٥٠، القلقشندى، صبح الأعشى، ج ٥، ص ١٠٨.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ص ٤٦٦، ٤٦٧.

(٥) الإدريسى، صفة المغرب، ص ١٣١.

(٦) الترجمانى: تحفة الأريب، ص ١٣، نقولا زيادة، الرحالة العرب، ص ١٩٩.

(٧) الغبرينى: عنوان الدراية، ص ٢٣، ٢٤.

(٨) نعيم زكى: طرق التجارة، ص ٢٤٨.

(٩) سامية مصطفى سعد: الأثر الثقافى للأندلسيين والمغازية على علماء الصعيد الأعلى فى مصر فى العصور الوسطي، ص ١٧.

الأقوياء من حيث السيطرة على القبائل والضرب على أيدى المفسدين على العكس من فترات سيطرة الوزراء على السلطة حيث ينعدم الأمن والأمان وينتشر الخوف فيقبل التجار عدم الخروج بتجارتهم.

العلاقات التجارية بين الحفصين وبلاد السودان الغربى:

حرص السلاطين الحفصيون ووزرائهم على إقامة علاقات تجارية مع بلاد البرنو من أجل المحافظة على مكاسبهم من التجارة معهم، لذلك عمل السلاطين الأقوياء على دعمها وتعزيزها، وحرص السلاطين الحفصيون على عدم التدخل فى شئون الحكم الداخلية أثناء حروبهم الداخلية، حيث اتخذوا موقفًا محايدًا، مما جعل ملك الكانم من مساعدة السلطان المستنصر الحفصى فى القبض على ابن قراقوش الثائر على السلطان الحفصى بعد هروبة مع أنصاره إلى بلاد السودان فأمر السلطان الكانمى بقتله هو وصاحبه(١) وأكد ملك الكانام على تعزيزه للعلاقات بين البلدين، حيث أرسل عام ٦٥٧هـ / ١٢٥٨م هدية إلى سلطان تونس المستنصر الحفصى، وكانت الهدية عبارة عن زرافة أثارت إعجاب وحيرة العامة لأنها كانت حيوانًا جديدًا عليهم(٢) وفى عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المنفذين لأوامرهم ازدهرت حركة التجارة الحفصية أيضًا حيث حمل التجار الهدايا إلى سلطان البرنو حتى يسمح لهم بحرية الإقامة والتنقل فى بلاده، حيث كان أهل البرنو يستقبلون التجار بالترحاب والحفاوة وفى عهد السلاطين الأقوياء وكان الوزراء مركز تنفيذ، انتعشت التجارة مع

(١) التجانى: الرحلة، ص ١١١.

(٢) الزركشى: المصدر السابق، ص ٣٦، أبن القنفذ، الفارسية،ص ١٢٠، ابن خلدون: العبر، مج ٦، ج ١٢، ص ٤١٢، إبراهيم طرخان: امبراطورية البرنو، ص ١٧٤.

مدينة تمبكت أحدى المراكز التجارية المزدهرة، التى تقع على الطريق الذى يبدأ من طرابلس الحفصية ثم إلى أوجلا ثم إلى مدينة جاوة ومنها إلى تمبكت أو عن طريق آخر يبدأ من واحة الجريد إلى غدامس ومنها إلى تنست[١].

ولعب التجار الحفصيون دورًا عظيمًا فى عملية نقل البضائع والسلع من موانئ تونس إلى بلاد جنوب الصحراء[٢] حيث نقلت القوافل الحفصية إلى بلاد السودان الثياب الجميلة الفاخرة، والاستياء التحية التى يحتاج إليها أهل السودان الغربى من البرنو والكائم[٣] وكانت الكتب أهم السلع التجارية التى لاقت رواجًا فى بلاد السودان الغربى وكانت أسعارها غالية[٤] وحمل التجار التونسيون الأقمشة الصوفية والكتانية والزجاج والآلات المصنعة والأسلحة والعمائم والأكسية[٥] وحمل التجار الحفصيون معهم الأقمشة والبضائع الأوروبية إلى تلك البلاد وخاصة فى فترات سيطرة السلاطين على أمور الحكم وعلى وزرائهم[٦] وحمل التجار من السودان الغربى الرقيق التى كثر الطلب عليهم[٧] وكانت أسعارهم رخيصة عندهم وبالتالى كثر الرقيق فى البلاد الحفصية مثل طرابلس

(١) ابن خلدون: العبر، مج ٦،ج ١٢، ص ١١٩، القلقشندى: صبح الأعشى، ج٥، ص ٤٦٦، أحمد شلبى، الموسوعة الإسلامية، ج ٦، ص ١٩٧.

(٢) السعدى: تاريخ السودان، نشر هوداس باريس، ١٩٦٤، ص ٢٩٣.

(٣) ابن سعيد: بسطة الأرض، ص ٢٨.

(٤) الوزان: وصف إفريقيا، ص ٥٤١، الشيخ الأمين عوض الله: العلاقات التجارية، ص ١٥١.

(٥) منى سيد عبد العزيز: المرجع السابق، ص ١٤٩.

(٦) صلاح العقاد: المغرب العربى، ص ٥١.

(٧) ابن سعيد: بسطة الأرض، ص ٢٤، ٦٠، الدولاتلى: مدينة تونس، ص ٧٣.

وتونس وبجاية، وكذلك جلب العاج إلى تونس الحفصية لأنه كان فى بلاد السودان الغربى أرخص وبكميات كبيرة وجلب التجار الصمغ وريش النعام والأنيوس[١].

وخلاصة القول ارتبطت الدولة الحفصية بعلاقات تجارية عظيمة مع الدول المجاورة لها وخاصة فى عهد السلاطين الأقوياء ووزرائهم المنفذين لأوامرهم على العكس من فترات نفوذ الوزراء حيث انعدم الأمن والأمان من أجل البلاد فخاف التجار على مصالحهم وتجارتهم التى تعرضت لعمليات السلب والنهب من جانب الأعراب والقوى المعادية للسلطة.

(١) نعيم قداح: إفريقيا فى ظل الإسلام، ص ١٢٦، أحمد شلبى: الموسوعة الإسلامية، ج٦، ص ١٩٧، إبراهيم طرخان، امبراطورية البرنو، ص ١٦٥

obeikandl.com